

# كَيْتَرِبَةُ الصَّادِقِ

عباس ممدود العفاد



العنوان: صحيفة الصديق .  
المؤلف: عباس محمود العقاد .  
إشراف عام: داليا محمد إبراهيم .  
تاريخ النشر: الطبعة السادسة - مارس 2005 م .  
رقم الإيداع: 2003/ 10054  
الترقيم الدولي: ISBN 977-14-1774-9

الإدارة العامة للنشر: 21 ش أحمد مرابي - المنصهر - الجيزة  
ت: 3440434 (02) - 3472864 (02) - 3462274 (02) - فاكس: 3462274 (02) - ص ب: 21 إمبابة  
البريد الإلكتروني لإدارة العامة للنشر: [publishing@nahdetna.net](mailto:publishing@nahdetna.net)

الطبع: 50 النحلة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر  
ت: 8330287 (02) - 8330289 (02) - فاكس: 8330296 (02)  
البريد الإلكتروني للطابع: [press@nahdetna.net](mailto:press@nahdetna.net)

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش كامل حسني - الفجاءة -  
القاهرة - ص ب: 96 الفجاءة - القاهرة.  
ت: 1908827 (02) - 5908895 (02) - فاكس: 5903395 (02)

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 0800233033  
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: [sales@nahdetna.net](mailto:sales@nahdetna.net)

مركز التوزيع بالإسكندرية: 408 طريق المرسية (زيتوني)  
ت: 5230560 (03)  
مركز التوزيع بالمنصورة: 47 شارع عبد السلام - عكوف  
ت: 2259685 (050)

موقع الشركة على الإنترنت: [www.nahdetna.net](http://www.nahdetna.net)  
موقع البيع على الإنترنت: [www.enahda.com](http://www.enahda.com)



احصل على أي من إصدارات شركة ناهدتنا مصر (كتاب / CD)  
وثق بفضائل الخدمات عبر موقع البيع  
[www.enahda.com](http://www.enahda.com)

جميع الحقوق محفوظة © لشركة ناهدتنا مصر للطباعة والنشر والتوزيع

لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية  
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.

## تقديم

فى تقديم كتابى هذا عن أبى بكر الصديق أقول ما قلته فى «عقريه محمد» و«عقريه عمر» وكل كتاب من هذا القبيل ، وفحواه أننى لا أكتب ترجمة للصديق عليه السلام ، ولا أكتب تاريخاً لخلافته وحوادث عصره ، ولا أعنى بالوقائع من حيث هى وقائع ولا بالأخبار من حيث هى أخبار ، فهذه موضوعات لم أقصدها ولم أذكر فى عناوين الكتب ما يعد القارئ بها ويوجه استطلاعاً إليها ، ولكنما قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية ، نعرفنا به ونجولو لنا خلايقه وبواعث أعماله ، كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين . فلا تعيننا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدي أدائها فى هذا المقصد الذى لا مقصد لنا غيره ، وهى قد تكبر أو تصغر فلا يهمنا منها الكبير أو الصغير إلا بذلك المقدار ، ولعل حادثاً صغيراً يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته ، ولحظة مصورة أظهر من لحته . بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التى تحيى عرضاً فى بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها فى مقياس التاريخ .

ومن هنا أن تكون الصورة صادقة كل الصديق فى جملتها وتفصيلها . . . . . فليس من غرضنا التجميل الذى يخرج بالصورة عن حقيقتها ، ولسنا نريد أن يطلع القارئ على تلك الصورة فلا يعرفها ولا يعرف أباً بكر منها ، ولكن تجميل الصورة شيء ، وتوقير صاحبها شيء آخر ، فإنك إذا صورت أباً بكر ورفعت صورته مكاناً علياً لم تكن قد أضفت إليه جمالاً غير جماله أو غيرت ملامحه النفسية بحيث تخفى على من يعرفها ، فهذا هو التوقير الذى لا يُخل بالصورة ولا يعاب على المصور ، وليس هو التجميل المصطنع الذى يُضلل الناظر عن الحقيقة .

فكل فضيلة أثبتناها لأبى بكر فى هذه الصفحات فهى فضيلته التى لا نزاع فيها ، وكل عمل استطاعه ووصفناه بقدرته فقد استطاعه بغير جدال ، وما من

عَمَل لم يعملهُ قلنا إنه قد عملهُ ، ولا من قدرة لم تظهر منه جعلناها من صنوف قدرته ، ثم يتوسمه القارئ بعد هذا فيرى صورة مميزة بين صور العظماء من أمثاله ، فهو محمود موَقَّر وعمر بن الخطاب في صورته محمود موَقَّر ، ولكنهما مع ذلك لا يتشابهان ولا يتراءى أحدهما في ملامح الآخر ، وهذا قصارك من صدق الصورة في تمييز الرجل بين نظرائه ، وفي تمثيله بما فيه وما ليس فيه .

إنك حين تعدد ثروة رجل فتقول : إنه صاحب عشرة بيوت ، لا يلزمك بعد ذلك أن تقول : ولكنه ليس بصاحب أرض زراعية ولا أوراق مالية ولا معامل صناعية ولا مرتبات حكومية ، وإذا أنت سكت عن هذا قاصداً أو غير قاصد لم يجز لأحد أن يلومك أو يظن بك تعمد الإخفاء والسكوت ، فحسبك أنك ذكرت ثروته الصحيحة ولم تُضِف إليه ما ليس من ماله لتكون قد أعلمت من يريد العلم بثروته غاية ما ينبغي أن يعلم .

وكذلك الشأن في ثروات النفوس حين يحصيها المقدرُونَ : تصدق إن ذكرت له ما يملك ، ولا يفرتك الصديق إن فأنك أن تحصى كل ما ليس له بملك ، فليس هذا بغرض من أغراض الإحصاء أو التعريف .

وملهبنا الذي نتوخاه في الكتابة عن العظماء الذين حسنت نياتهم في خدمة الإنسان أن نوفيهم حقهم من التوقير ، وأن نرفع صورهم إلى مكان التَّجَلُّة ، وإن لم يمنعنا هذا أن نصدقهم الرصف والتصوير وقد عبرت عن هذا المذهب شعراً قبل ثلاثين سنة فقلت من أبيات :

لا تَلَحْ ذا بأس وذا همسة	على ذنوب العُصبة الغُلب
فليس مقياسك مقياسهم	ولا هم مثلك في المأرب
انظر إلى ما خلفوا بعدهم	من المعالي ثم لم واعتب
من ركب الهائل من أمره	فعدره في ذلك المركب

ونحسب هذا المذهب في زماننا هذا أوجب مما كان في الأزمان الغابرة ، لأن

الأسباب التى تَغُضُّ من وقار العظمة لم تزل تتكاثر منذ القرن الثامن عشر إلى الآن ، وهى مما يحدث عفوًا فى بعض الأحيان ، وما يأتى قصيدًا فى أحيان أخرى ، وقد تفيد الإشارة إليها فى اتقائها إذا كان إلى اتقائها سبيل .

بدأت هذه الأسباب بفهم سيئ للمنازعات التى شجرت بين رجال العلم ورجال الدين منذ النهضة العلمىة الحديثة . فوَقِرَ فى بعض الأذهان أن العلم الحديث قد ألغى ما قبله من جهود المصلحين وطلاب المعرفة الإلهية والديوية وخط أناس بين دعاة الأديان الذين أخلصوا العقيدة فى الإصلاح وبين رجال الأديان الذين استغلوا العقائد وتعمدوا إنكار الحقائق ووقفوا بعنادهم ولجاجتهم عقبة فى طريق التقدم والتهذيب .

فالمصلحون من عظماء الأديان أهل لكل تعظيم واعتراف بالجميل ، لا يعيبهم أنهم سبقوا عصر العلم الحديث ، بل يُزَكِّيهم ذلك ويضاعف حقهم فى الثناء وعرفان الجميل ، ويدل على أن الحاجة إليهم كانت أمس وألزم وأنهم كانوا فى خدمتهم الإنسانية أقدر وأعظم ، مع ما هو مفهوم من الفارق بين حاجة الناس إلى الدين وحاجتهم إلى العلوم . فهذه حاجة ذهنية وتلك حاجة حيوية أو روحية لا تغنى فيها علوم العلماء .

ثم جاءت الديمقراطية وأساء بعض الناس فهمها كما أساءوا فهم النزاع بين العلم والدين ، فظنوا أن حرية الصغير تجعله فى وصف الكبير ، وأن المساواة القانونية تلغى الفوارق الطبيعية ، وأن الثورة على الرؤساء المستبدين معناها الثورة على كل ذى مكانة من العظماء ، وهو وهم ظاهر البطلان ولكنه قد سرى مسراه إلى الأذهان ، فكثرت التطاول على كل عظمة إنسانية ، وفشت بدعة الاستخفاف والزراية حتى أوْشك التوقير لمن يستحق التوقير أن يعاب .

ثم جاءت الشيوعية وهى قائمة على أن الأبطال صنائع المجتمع وليسوا بأصحاب الفضل عليه ، وأن تعظيم الأبطال الغابرين يَصْرِفُ الناس عن عيوب

النظم الاجتماعية التى أنشأت أولئك الأبطال فخدموها قاصدين مدبرين أو على غير قصد منهم وتدبير ، وأفرط الشيوعيون فى تلويث كل عظمة يؤدى توقيرها إلى نقض مذهبهم ومخالفة دعوتهم ، حتى بلغ من سخفهم فى هذا أنهم غيروا أبطال الروايات فى مسرحيات شكسبير وأمثاله فعرضوا «هملت» على المسرح لثيمًا مأكراً سيئ النية على خلاف ما صوّره الشاعر ، لأن تصوير أمير من أمراء القرون الوسطى فى صورة حسنة يُخلُّ بما قرره عن النظم الاجتماعية والسياسية فى تلك القرون .

وتكاثرت على هذا النحو أسباب الغضب من العظماء حتى صبح عندنا أن العظمة فى حاجة إلى ما يسمى «برد الاعتبار» فى لغة القانون ، فإن الإنسانية لا تعرف حقاً من الحقوق إن لم تعرف حقَّ عظمائها ، وإن الإنسانية كلها ليست بشىء . إن كانت العظمة الإنسانية فى قديمها أو حديثها ليست بشىء .

ومن ثمّ مذهبنا فى توقيير العظمة مع التفرقة بين التوقيير المحمود والتجميل المصطنع الذى يعيب المصور ويُضِلُّ الناظر إلى الصورة . فليس لنا أن نُثبت جمالاً غير ثابت ، ولكن - لنا - بل علينا - متى أثبتنا الجمال فى مكانه أن نرفع الصورة إلى مقام التوقيير .

قال زميلنا الباحث الفاضل الأستاذ أحمد أمين من نقده لكتاب الدكتور هيكل (باشا) فى الصُّدُيق وكتابه فى عبقرية عمر : «... بقيت مسألة هامة كثيراً ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها ، وهى أن العظيم مهما عظم له خطا ، وإلا ما كان إنساناً والعصمة لله وحده . فهل واجب المترجم له أن يعرض لكل ذلك فى تفصيل ، فيذكر كل ما له ويُشيد بذكره ، ويذكر خطاؤه وينقدها ، ويعلم بذلك درساً فى نواحي مجده ، ودرساً آخر فى مواضع خطئه ، أو واجبه فقط تجلية نواحي العظمة والتأويل والدفاع الدائم عن نواحي الخطأ؟ أنا أرى أن الرأى الأول أرجب ، متأسياً بأبى بكر وعمر نفسيهما ، والمؤلفان القاضلان إلى الرأى الثانى أميل » .

والواقع أننا إلى الرأي الثانى أميل كما قال زميلنا الأستاذ ، ولكنه الميل الذى نُحِلُّه بما قدمناه من حدود ، ونحتج له بما بيناه من أسباب .

ويخيل إلينا أن الأستاذ نفسه يستطيع هذا الميل حين قال فى صدر مقاله عن الكتابين : « ... إن الأوروبيين قد وجدوا من علمائهم من يشيد بعظمايتهم ويستقصى نواحي مجدهم ، بل قد دعنهم العصبية أحيانا أن يتزئدوا فى نواحي هذه العظمة ، ويُعملوا الخيال فى تبرير العيب وتكميل النقص تحميسا للنفس وإثارة لطلب الكمال . أما نحن فقد كان بيننا وبين عظمايتنا سدودٌ وحواجزٌ حالت بين شبابنا وجمهورنا والاستفادة منهم ... » .

فهذه السدود كثيرة فى الشرق ، كثيرة فى العصر الحاضر حيث كان ، وهى التى تُجيز لنا - بل تفرض علينا - أن نوقى العظماء حقهم من التوقير ، وأن نصورهم كما خلقهم الله ، ثم لا علينا أن نرفع الصورة حيث شئنا بعد الصدق فى التصوير .

عباس محمود العقاد

- Ward GE, Ricker WE (1967) The growth of the rainbow trout, *Salmo gairdneri*, in relation to temperature and photoperiod. *J Fish Res Board Can* 24:289–324
- Ward GE, Ricker WE (1973) The growth of rainbow trout, *Salmo gairdneri*, in relation to temperature and photoperiod. *J Fish Res Board Can* 30:249–256
- Ward GE, Ricker WE (1975) The growth of rainbow trout, *Salmo gairdneri*, in relation to temperature and photoperiod. *J Fish Res Board Can* 32:249–256
- Ward GE, Ricker WE (1976) The growth of rainbow trout, *Salmo gairdneri*, in relation to temperature and photoperiod. *J Fish Res Board Can* 33:249–256
- Ward GE, Ricker WE (1977) The growth of rainbow trout, *Salmo gairdneri*, in relation to temperature and photoperiod. *J Fish Res Board Can* 34:249–256
- Ward GE, Ricker WE (1978) The growth of rainbow trout, *Salmo gairdneri*, in relation to temperature and photoperiod. *J Fish Res Board Can* 35:249–256
- Ward GE, Ricker WE (1979) The growth of rainbow trout, *Salmo gairdneri*, in relation to temperature and photoperiod. *J Fish Res Board Can* 36:249–256
- Ward GE, Ricker WE (1980) The growth of rainbow trout, *Salmo gairdneri*, in relation to temperature and photoperiod. *J Fish Res Board Can* 37:249–256
- Ward GE, Ricker WE (1981) The growth of rainbow trout, *Salmo gairdneri*, in relation to temperature and photoperiod. *J Fish Res Board Can* 38:249–256
- Ward GE, Ricker WE (1982) The growth of rainbow trout, *Salmo gairdneri*, in relation to temperature and photoperiod. *J Fish Res Board Can* 39:249–256



## اسم وصفة

عُرف الخليفة الأول في التاريخ بأسماء كثيرة : أشهرها أبو بكر والصدّيق ،  
وبليهما في الشهرة عتيق وعبدالله .

وقيل إنه عُرف بهذه الأسماء أو الألقاب في الإسلام والجاهلية على السواء .  
عُرف في الجاهلية بلقب الصدّيق لأنه كان يتولى أمر الديّات وينوب فيها عن  
قريش ، فما تولاه من هذه الديّات صدّقه قريش فيه وقبّله ، وما تولاه غيره  
خلفته وتردّدت في قبوله وإمضائه .

وعُرف بالعتيق لجمال وجهه ، من العتاقة وهي الجودة في كل شيء ، وقيل :  
بل من العتق ، لأن أمه لم يكن يعيش لها ولد فاستقبلت به الكعبة وقالت :  
اللهم إن هذا عتيقك من النار فهبه لى . فعاش فعرف باسم عتيق . . . وقيل  
غير ذلك : إنه أحد ثلاثة أبناء هم : عتيق ومعتق ومُعيتيق ، سموا بذلك  
تفاضلاً بالعيش والعتق من الموت .

وعرف كما قيل في بعض الروايات باسم عبد الكعبة في الجاهلية ، ثم  
عبدالله في الإسلام .

وسُمى في الإسلام بالصدّيق لأنه صدّق النبي ﷺ في حديث الإسراء ،  
وبالعتيق لأنه عليه السلام بشره بالعتق من النار .

ومن الجائز أنه عُرف بهذه الألقاب على محلّها في الجاهلية ومحملها في  
الإسلام ففي حياته وسيرته قبل الإسلام وبعده ما يُحقق هذه التسمية أو هذا  
التلقيب .

وُلد للسنة الثانية أو الثالثة من عام الفيل ، فهو أصغر من النبي ﷺ بنحو  
سنتين ، وهو عبدالله بن عثمان الذي عُرف باسم أبي قحافة ، ويُلْتَقى نسبه ونسب  
النبي ﷺ عند مُرّة بن كعب ، بعد ستة آباء ، وكلاً أبويه من بنى تيم ، وهم قوم

اشتهر رجالهم بالذمّة والأدب ، واشتهر نساؤهم بالذك والحظوة ، وفيل إن بنات تيم أدل النساء وأحظاهن عند الأزواج . وربما كان مرجع ذلك إلى طول عهد القبيلة بحياة المدينة وأشغالها ، وأن اشتغالها بالتجارة كان يقوم على المودة وحسن المعاملة ولا يقوم على بسطة النفوذ وصوله الوفرة والغلبة . فبنو أمية - مثلاً - كانوا يتجرون وكان زعيمهم أبو سفيان يُرسل القوافل بين الحجاز والشام ، ولكنها قوافل أشبه بالحمالات والبعوث ، معولهم فيها على الوفرة والوفرة ، وليست كذلك لحجارة أبي بكر وإخوانه من أبناء البُطون الفرشية التي لها شرف النسب في غير مكاثرة بالعدّد والعُدّة ، ومغالبة بالصولة ودهاء القوة ، كمغالبة الأميين .

ومهما يكن من أمر المعاملة الودية وآداب الأسرة والمدينة في بني تيم ، فهذه الآداب واضحة في أسرة الصديق عليه السلام أجمل وضوح ، لم تُذكر لنا قط أسرة كانت في عصره على مودة أجمل من المودة التي اتصلت بينه وبين أبيه وأمه وأبنائه ، مدى الحياة . وقد كان له ابن حارب في صفوف المشركين ، وأوشك أن يكون بينه وبين أبيه قتال ، ولكننا إذا تجاوزنا هذه الفلّة من فلتات السن رجعنا إلى أبوة لا عقوق فيها بعد اعتداء ذلك الابن إلى الإسلام ، كما اهتدى إليه سائر ذويه .

عاش أبو قحافة حتى رأى ابنه خليفة يرفع صوته على أناس لم يكن في مكة أرفع منهم صوتاً وأعظم خطراً ، وكان مكفوف البصر على باب داره بمكة يوم أُقبل أبو بكر إليها مُعتمراً بعد مبايعته بالخلافة ، فقيل له : هذا ابنك ، فنهض يَتَلَقَّاه ، ورآه ابنه يهْمُ بالنهوض فحجل نازلاً عن راحلته وهي واقفة قبل أن يُنيخها ، وجعل يقول : يا أبت لا تقم! ثم لاقاه والتزمه وقبّل بين عينيه ، ولم ينتظر - وهو في نحو الستين - أن يُنيخ راحلته لينزل منها ، مخافة على أبيه من مشقة النهوض .

ودعا الخليفة بأبي سفيان لأمر أنكره فأخذته الحنة التي كانت تُراجعها في بعض ثورات نفسه ، وأقبل يصيح على أبي سفيان وهو يلين له ويسترضيه فسأل أبو قحافة قائده : على من يصيح ابني؟ فقال : على أبي سفيان! ... فدنا منه

يقول له وفي كلامه من العبطة أكثر مما فيه من الإنكار، وفيه من دهاء الطيبة أكثر مما فيه من سهو الشيخوخة . أعلى أبي سعيان تصيح وترفع صوتك يا عتيق؟ لقد غدت طورك وجزت مقدارك!

فاتسم أبو بكر والصحابه ، وقال لأبيه المنكر في رضاه الراضى في إنكاره : يا أبت إن الله رفع بالإسلام قوماً وأذل به آخرين .

وهذه الطيبة التى لا تخلو من دهائها هى التى ظهرت من هذا الأب الصالح ، يوم دعوا إليه رسول الله فقال أمر جُلّ . وسأل : ومن لى الأمر بعده؟ قالوا : ابنك ؛ فعاد يسأل : فهل رضيت بذلك بنو عبد مناف وبنو المعيرة؟ قالوا . نعم . . قال : لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع!

بل هذه الطيبة التى لا تخلو من دهائها هى التى ظهرت منه حين هاجر ابنه مع النسي ﷺ فأقبل على أحفاده يسألهم : ما ترك لكم بعد هجرته من المال؟ وهى التى ظهرت منه حين ذهب ابنه يُنفق من ماله لإعتاق الأرقاء الذين عذبهم المشركون فكان يقول : لو أنك إذا فعلت ما فعلت أعتقت رجلاً جُلداً يعموك ويقومون دوك؟ ويقول له ابنه : يا أبت إنى أريد ما عند الله

ثم عاش الأب الصالح حتى بُصر ابنه العظيم مرد ميراثه منه إلى أحفاده وسأل حين بلغته وفاته وهو يقول : رزء جُلّ ، رزء جُلّ . فمن لى الأمر بعده؟ قالوا عمر ؛ قال : صاحبه . يعنى صاحب الأمر أو صاحب الصديق ، فى إيجاز كافٍ كإيجاز ابنه العظيم .

كثير مما فى أبي بكر من هذا الأب الصالح : طيبة هى نقطة فى استقامة ، وزيد عليه أبته فى كل وصف حميد .



## الصدِّيقُ الأوَّلُ والخليفةُ الأوَّلُ

فى رواية من أشهر الروايات عن مرمى النبى ﷺ أن مؤدَّه بلالا جاءه يوماً ، وقد اشتد به المرض فقال عليه السلام :

مُرُوا أبا بكر فليصل بالناس .

قالت عائشة رضى الله عنها :

يا رسول الله ! إن أبا بكر رجل أسيء ، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس . فلو أمرت عمر؟

فقال عليه السلام مرة أخرى .

مرُوا أبا بكر فليصل بالناس .

فعادت عائشة تقول لحفصة :

قولى له : إن أبا بكر رجل أسيء ، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس . فلو أمرت عمر؟

فأعادت حفصة ما قالت له عائشة

وصحَّجَ عليه السلام من هذه المراجعة ، فقال :

إِنكُنَّ أَتَيْنَ صَوَاحِبَ يُوسُفَ ، ثُمَّ قَالَ لثَلَاثَ مَرَّةٍ : «مرُوا أبا بكر فليصل بالناس .

و روى عبد الله بن زمعة أنه خرج من عند النبى ، فإذا عمر فى المسجد وأبو بكر غائب فقال . يا عمر ، قم فصل بالناس . فتقدَّم فكَبَّرَ ، وكان رجلاً مجهرًا ، فلم يسمع رسول الله ﷺ صوته سأل . فأين أبو بكر؟ يَأْنِي الله ذلك والمسلمون ، يَأْنِي الله ذلك والمسلمون .

ولام عمر عبد الله بن زمعة قائلاً :

ويحك ! ما صنعت بي يا ابن زمعة؟ والله ما طنستُ حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمرك بذلك ولولا ذلك ما صليت بالناس

قال ابن زمره :

والله ما أمرني رسول الله ﷺ بشيء ، ولكنني حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضور الصلاة بالناس .

وموضع العجب في هذه الرواية تردد السميدة عائشة رضي الله عنها في تبليغ أمر النبي بإقامة أبيها مقامه في الصلاة ، وقد تكرر الأمر أكثر من مرة .

بهذا التردد عجيب من وجوه :

عجيب أن تتردد في تبليغ أمر محمد عليه السلام ، وهو الزوج المحبوب والنبي المطاع .

وعجيب أن تتردد في تبليغه ، وهو تشریف لأبيها بمقام كريم تتناول إليه الرقاب .

ويزيله عجباً أن يحدث في شدة المرض والنبي مُجهد يطلب الراحة ، وهي أشد نساءه سهراً عليه في مرضه ، وأرعاهم له بما يريحه ، ويتخفف الجهد عنه .

نعم إن عائشة رضي الله عنها كانت أكثر الناس دالة على السبى وأجرأهم على مراجعته ، والتلطف في إبلاغه ما يهيب القوم أن يبلغوه . فلئن كانت هي أولى الناس أن تطيعه وتبلغ أمره ، لقد كاد كذلك تعلم من مكانتها عنده ما يُسبح لها أن تراجع وتنام غضبه ، لدأبها عليه وثقته من مصمر حبها له وامثالها لأمره .

إلا أنها قد بلغت مكان الدالة عند رسول الله بما لها من صفات كثيرة غير الصبابة والجمال ، وأول تلك الصفات فرط الذكاء ولطافة الحس وحسن التقدير .

وحليق بمن كانت في مثل دكانها ولطافة حسها وحسن تقديرها أن تظن إلى الحد في ذلك الموقف العصيب ، وفي ذلك السلاغ الخطير .

وهيئات أن تتردد يومئذ عن دلال في غير موضعه ، ولأسباب غير السبب الذي يمكن أن يوحى إليها ذلك المتردد ، ولا بد له من سبب عظيم

ولقد كان له سبب عظيم .

بل هو أعظم الأسباب التي يمكن أن توحى إليها تلك التردد ، ولولاه لما أقدمت عليه .

وما نحسب أن شيئاً حفظته الروايات التاريخية لما عن ذكاء السيدة عائشة يدل على قوة ذلك الذكاء ، كما دل عليه ترددها في ذلك الموقف العصيب

يكفى أن ستحضر اليوم ما قيل عن الخلافة بعد النبي عليه السلام لنعلم مصلح تلك الذكاء العجيب في مقتبل الشباب ، ونكبر تلك النظر الثاقب إلى أبعد العواقب ، ونلتئمس لها العذر الذي يجعل يامراً أحسها محمد ذلك الحب وأعزها ذلك الإعزاز .

فقد قيل في الخلافة بعد النبي كثير :

قيل فيها ما يخطر على بال الأكثرين ، وما يخطر على بال الأقلين ، وما ليس يخطر على بال أحد إلا أن يجمع به الثعنت والاعتساف أغرب جماع قيل .

إن وصول الخلافة إلى أبي بكر إنما كان مؤامرة بين عائشة وأبيها وقبل :

إنه كان مؤامرة بين رجال ثلاثة أمانتهم عائشة على ما تأمروا فيه ، بما كان لها من الخطوة عند رسول الله ، وكان هؤلاء الرجال على زعم أولئك القائلين أنا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح ، وهم الذين أسرعوا من المهاجرين - إلى سقيفة بني ساعدة ليُدرَكوا الأنصار قبل أن يتفقوا على اختيار أمير أو خليفة لرسول الله .

وقيل : إن هؤلاء الرجال الثلاثة اتفقوا على تعاقب الحكم واحداً بعد واحد : أبو بكر فعمر فأبو عبيدة ، ولهذا قال عمر حين حضرته الوفاة : لو كان أبو عبيدة حياً لعهدت إليه لأنه أمين لأمة ، كما قال فيه رسول الله ، وهذا زعم رؤسائه بعض المستشرقين ولقى بين القراء الأوروبيين كثيراً من القبول ، لأنه شبيه

بما عهدوه في أمثال هذه المواقف من أحاديث التدبير والتمهيد ورويات التواظف والائتمار .

فالسيدة عائشة مسعودة لحظ لامرأء ، لأنها لم تخالف محمداً قط في أمر خطير ، وحين حالفته أو ترددت في تبليغ كلامه في أمر من أخطر الأمور ، كان هذا التردد أدل على مكانتها ومفضلها وعلى «سنحقاتها لمزلة الإيثار في ذلك القلب العظيم .

فهى قد ترددت لتسريئ نفسها من القالة ، وتسريئ ذلك الموقف الخطير من المظنة ، وتبرئ الخلافة من أسباب الادعاء ، وقد يكون فيها بصاف وإيداء وأشهدت على نفسها أولى الناس بالشهادة في ذلك الموقف الخطير حفصة بنت عمر رضي الله عنهما .

وإذا علمت حفصة أن عائشة راجعت رسول الله مرتين في تبليغ الأمر إلى أبيها أن يصلى بالناس ، فقد علمت ذلك من هي أحق بعلمه من سائر أمهات المسلمين ، إذ كان عمر رضي الله عنه أحد اثنين في حق الخلافة لا يذكر أحدهما إلا ذكر الآخر ، كما ظهر ذلك من وقع الأمور ، أو كما ظهر من قول عبد الله بن زمعة لعمر :

«حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس»

فتردد عائشة في ذلك الموقف الخطير لم يصير بل نفع ، وكان أنفع من إسراعها بالتبليغ ، وأول ما نفع به أنه أظهر رغبة السى إظهاراً لامجال للمظنة فيه ، فكان ذلك من أدعى دواعى الاتفاق على الاحتيار وقطع السبيل على الفتنة والشقاق

نعم إن رواية من الروايات تزعم لنا أن السيدة عائشة رضى الله عنها ترددت في التبليغ لأنها أشفقت أن يتشاءم الناس برؤية أبيها في مقام يذكرهم بالخطر على أحب الناس إليهم في ذلك المقام ، وتلك سائحة يجوز أن تسنح لها وهى أشد الناس إحساساً بذلك التشاؤم ووقعه في نفوس المسلمين ولكننا إذا سمعنا أنها رضى الله عنها قد تعمدت الإبطاء في التبليغ ، فالسبب الذى أومأنا إليه آنفاً أولى وأليق بالمعهود من ذكائها وخلقها الكريم لأنها لا تحب السى في



مرصه ولا تعوّت على أبيها شرف الخلافة حذرًا من التشاؤم وحده ، ثم هي لا تدعو حمصة إلى تعريض عمر لموقف تصون عنه أباهما . فإن كان تعمّد لإبطاء هي التسليع فذلك السبب الذي أومأنا إليه آنفاً أحق الأسباب أن يرجّح على غيره لتفسير ذلك الإبطاء ، فهو أدعى أن يبطل به العجب ولا يمتنع مع هذا أن يفترون بغيره من الأسباب .

\*\*\*

ويقول العجب من تردد السيدة عائشة كلما أرداد العجب من تلك الفروض والأناويل التي خاص فيها من خاص عن «مؤمرة» الخلافة المزعومة ، وليس لها سند من التاريخ ، ولا من التفكير القويم ، ولا من المعهود في أخلاق الرجال والنساء الذين عّزيت إليهم تلك المؤمرة بغير بيّنة قاطعة ولا طر راجح

فليس في شيء رواه الرواة عن الخلافة بعد النبي عليه السلام كلمة واحدة تُرجّح تلك الفروض والأناويل ، سواء كان قائلها عن أسرعوها إلى بيعة الصديق أو تناطئو في بيعته ، أو قصّوا حياتهم ولم يبايعوه

وليس في شيء من خلائق أبي بكر وعمر وأبي عبيدة التي عهد لها الناس منهم في حياة النبي أو بعد وفاته ما يادّن لتوّهم أن يتوهم فيهم التأمير على خلافته وهو بقيد الحياة ، دون أن يطلعوه على جليلة أو دقيقة عما يعكرون فيه .

وليس في سيرة أبي بكر وعمر بعد أن ولوا الخلافة ما بسم على طمع في السطوة ، وحرص على رَهِو الملك يعريهما باستماحة ثقة النبي في حياته بما لا يليق . وهو عندهما بمكان من التّجَنُّة والحب لا تتطرق إليه الشكوك ولا ترتفع إليه الشبهات

وعلى نقيض ذلك تدلّ الحوادث والروايات التاريخية على أن الأمر قد وقع منهم جميعًا موقع المفاجأة التي لم يندبروا فيها إلا بعد وقوعها ، ولم يرموا فيها الرأي على نحو من الأحاء قبل اجتماع الأنصار سقيفة بني ساعدة

فالأقول تتفق - أو تكاد تتفق - على أن أبا بكر لم يكن قريبًا من النبي عليه السلام يوم أمر النبي بلالاً أن يدعو إلى الصلاة بالناس ، ولو كان فيه

وبين السيدة عائشة اتفاق في هذا الصدد لكان اقترابه من المسجد أو بيت النبي في تلك اللحظة لازماً كل اللزوم لإنجاز ذلك الاتفاق ، وإلا توجهت الدعوة إلى غيره وخرج الأمر من أيدي المتفقين .

وقد توفي النبي عليه السلام وليس في أصحابه الأقربين مَنْ كان بشوق وفاته ، فتركه أبو بكر بعد الصلاة وهو يقول : يا سي الله ، بي أراك قد أصبحت بعمرة من الله وفضل كما نُحب واليوم يوم ننت خارجه ، أفأتها؟

فأذن له السبي في الانصراف . وخرج أبو بكر إلى «السُّنح» حيث كان يقيم أما عمر فقد دهش لِمَعَى السبي تلك الدهشة التي لم يكن لها على أمة ، ولو كان على أمة لها لقد كان الأخرى أن يؤكد الوفاة ولا يستعربها ، نهيداً لذلك الاتفاق المزعوم الذي سيبتوها .

وبلع أبا بكر وعمر أن الأنصار مجتمعون في سقيفة بني ساعدة لاختيار الخليفة منهم ، فخرجوا إلى السقيفة على غير اتفاق بينهما أيهما الذي يخاطب القوم فكان عمر يخشى حدة أبي بكر فيهميم في نفسه كلاماً يقوله ، وكان أبو بكر يخشى حدة عمر فيستمهله ويخاطب القوم قبله ، وليس في ذلك دليل اتفاق قديم . وكان لقاؤهما أبا عبيدة يومئذ لقاء مصادفة في الطريق .

وحاء في رواية مشهورة أن عمر دافع أبا عبيدة قبل ذلك فقال له أبسط يدك فلا بايعك فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله . فقال له أبو عبيدة .

ما رأيت لك فهة<sup>(١)</sup> قبلها منذ أسمت أتايعى وبيكم الصديق وثاني  
اثن!

فإد صححت هذه الرواية فهي تنفي ما قيل عن تفاهم هؤلاء الرجال الثلاثة على مبايعة أبي بكر وتعاقب الخلافة بعده ، وقد يكون عمر دافع أبا عبيدة عازماً على مبايعته ، أو فاتحه لاستطلاع ما عنده من الرأي والرغبة ، فعلى كلتا الحالتين لا تفاهم من قبل على ذلك الرأي ولا اتفاق .

(١) الهمة الزنة

هكذا تلقى الصحاب الأجلاء نعى النبی ، وهكذا كانوا فی أثناء شدة المرض  
عليه فمتی كان التفاهم المرعوم؟ أقبل أن یرض رسول الله یعقل عاقل أن یجتمع  
صعوبة أصحابه والمؤمنین برسائلته للتأمر علی وراثته واعتنام موته؟ إن جاز فی  
عقل عاقل هذا ، فمن أدراهم إدد أن القرآن الکریم لا یوحی فی الخلافة غیر  
الذی رأوه؟ ومن أدراهم إذن - سلفاً - أن النبی علیه السلام یفارق هذه الدنیا  
ولا یوصی فی أمر الخلافة بوصاة يشهدها الناس عامة وتخالف ما اتفقوا علیه؟

إن الأمر لم یکن قابلاً لأن یحصل فیهِ غیر ما حصل ، بعد حسابان کل  
حساب ، واستقصاء کل فرض ، وتمحیص کل رواية .

ولم یکن فیهِ اتفاق مذهب علی صورة من الصور ، وإنما هو كما قال عمر رضی الله عنه .  
«إن بیعة أبی بکر كانت قلتة . . . ألا وإن الله وقی شرها» .

وما حاجة الأمر إلى تهید وقد كان فی غنى عن التمهید؟

لقد كان اختیار أبی بکر للخلافة «خبرة الواقع» الذی لا یحتاج إلى تدبیر ،  
بل یقاوم کس تدبیر .

فمن غیر أبی بکر کانت تجتمع له شرائط كما اجتمعت له ، وتتلاقى عنده  
الوجهات كما تلاقت عنده؟

کانت تجتمع له شرائط الس ، والسبق إلى الإسلام ، وصحبة النبی فی العار ،  
والمودة للمرعية بین أجلاء الصحابة ، ومعظمهم ممن دخلوا فی الدین علی یدیه

وكانت أمارات استخلافه ظاهرة من طلائعها الأولى قبل مرض النبی علیه  
السلام بسنوات . فكان لول أمير للحج یبعث به النبی علیه السلام وهو بالمدينة  
وكان ذلك سنة تسع من الهجرة ، واتفق فی طریقته أنه دعا إلى صلاة الصبح  
فسمع رغبة باقة وراء ظهره ، فوقف عن التکبیر وقال :

هذه رغبة باقة النبی ﷺ الجذعاء فلعله أن یكون رسول الله فنصلى معه .  
فإذا علی بن أبی طالب علی الناقة . فسأله أبو بکر

أمیر أم رسول؟ قال لا . بل رسول . أرسلنی رسول الله ﷺ بیروءة أقرؤها  
علی الناس .

فلما قدموا مكة قام أبو بكر فخطب الناس محدثاً عن المناسك ، وقرأ على سورة براءة حتى حتمها ، ثم كان يوم عرفة فخطب أبو بكر وقرأ على السورة ، هكذا حتى انتهت المناسك .

وكان قتال بين جماعة من الأوس فذهب النبي ﷺ يصلح بينهم وقال لبلال :

إن حضرت الصلاة ولم أن فمر أبا بكر فليُصلَّ بالناس وأثبت البخاري عن جبير بن مطعم أن امرأة أتت النبي ﷺ فأمرها أن ترحع إليه قالت . أرايت إن جئت فلم أجذك . . كأنها تريد الموت قال : إن لم تجديني فأتني أبا بكر .

وهذه أمارات مشهودة متفق عليها ، وغيرها أمارات شتى بعضها أصرح وبعضها أحوج إلى التأويل ، لا ضرورة لاستقصائها لأنها لا تبلغ في الحزم والتوكيد مبلغ ما قدمناه .

\*\*\*

وافترت تلك الأمارات جميعاً أمارات أخرى لا نقل عنها صراحة وتواتراً تدل على رعمة قوية في اجتناب كل ما يثير العصبية ، ويلبس الأمر على الجهلاء والمعرضين بين دعوة النبوة وطلب السلطان ولا مستعلاء .

فلا نحسب أن محمداً ﷺ دل بعمله وقوله ومصاميه رأيه على شيء واضح مطرد كما دل على هذه الرعمة القوية ، ولا ظهر منه الحرص على شيء كما ظهر حرصه على تنزيه النسوة من مطامع السيادة الديوية ومفاحر العصيات

فأبغض شيء كان إلى نفسه الكريمة قول من كانوا يقولون إن النسوة تمهد لدولة هاشمية أو وراثة دنيوية .

ولهذا أثر عنه أنه لم يؤل أحداً من قرنته ولاية أو عمالة في مكة والمدينة أو في غيرهما .

بل بهذا أصهر إلى أبي سميان ، واتحد معاوية كاتبا للوحي ، وأمر يوم فتح مكة ماديًا ينادي في الناس :

« من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سميان فهو آمن »  
لمحو من نفوس بني أمية حزارة العصبية بينهم وبين بني هاشم ، ولا يدع في سرائرهم محالاً للطعن بأنها علّة أسرة على أسرة ، أو بطن من قريش على سائر بطونها .

وقال ~~الخطيب~~ :

« إن هذا الأمر في قريش لا يعاديه أحد ، لا كنه لله على وجهه ما أهدموا الدين » ولم يقل « في بني هاشم » أو في بني عبد المطلب ، ولو شاء لقال .

ولا ريب أنه ~~الخطيب~~ لم يؤثر قريشاً بالأمر يومئذ لأنه يؤثر العصبية لبني قبيلته وقومه ، ولكنه أثرهم للحكمة السياسية النبوية التي لا يسهر عنها الهداة المسئولون عن مصائر الأمم في عصر من العصور . فقريش هم أصحاب السيادة في مكة وهي كعبة الإسلام وعاصمة الدول الإسلامية في ذلك الحين ولن تفلح دولة يكون أهل العاصمة فيها أول الثائرين عليها والمكرين لدورها

ويغلب على اعتقادنا أنه ~~الخطيب~~ ترك أمر الخلافة بعير وصية ظاهرة لأنه علم أن الخلافة مُنتهية إلى مثل ما انتهت إليه ، ولا ستم بعد تقديمه أبا بكر للصلاة بالناس

وبص على « قريش » ولم يتجاوز ذلك لأنه علم أن قريشاً تنمق على مثل ما اتفقت عليه ، وأن الخلاف إنما يحىء إن جاء من جانب الأنصار أهل المدينة فالخاتمة ماسة إلى هذا التخصيص لدفع الخلاف المنظور ، ومع هذا التخصيص اللازم وصية مكررة بإكرام الأنصار أوصى بها المسلمين بعده ، وهي وصية معها الواضح في هذا المقام أن ~~الخطيب~~ كان يتوقب أن تؤول الخلافة إلى المهاجرين فهم الذين تتجه إليهم الوصية بإكرام مثوى إخوانهم الأنصار ، ولولا ذلك لما اتجهت الوصية لفريق منهما دون فريق

ويقول إن السبي علم بمصير الخلافة على الوجه الذي صارت إليه ، لأن لا

نستطيع أن نفهم أنه ~~الخطأ~~ ترك هذه المسألة وهو يتوقع فيها العشل والفتنة ولم  
يُبرم فيها حكماً يدفعهما به ما استطاع

فإذا انحصرت الخلافة يومئذ في قريش فهي صائرة إلى أبي بكر دون غيره  
ولا حاجة إلى تدبير لن يغير مصير الأمور .

والا فكيف كانت الخلافة صائرة إلى غير ما صارت إليه وهي محصورة يومئذ  
في قريش ؟

والى من كانت نصير ؟

إن الذين تولوها بعد أبي بكر من صحابة النبي هم عمرو وعثمان وعلي  
ومعارية . فأى هؤلاء كاد أظهر حقاً وأقرب طريقاً وأدنى من الصديق إلى اتفاق  
لمسلمين عليه ؟

أهو عمر ؟ لقد كان أصغر من أبي بكر بنحو عشر سنين ، ولم تكن له سابقة  
في الإسلام وهي صحبة النبي ، ولم تكن ألفة الناس له كآلفتهم لأبي بكر ،  
وليس هو بأقوى عصية منه بين بطون قريش ، وليس هو بالذي يَشَعَبُ على  
أبي بكر ويعصيه لطمع في الخلافة إذا تقدم إليها بل كان هو أول من ناصه  
وحث الناس على بيعته . وقال له :

أنت أفضل مني .

فقال أبو بكر :

وأنت أقوى مني .

فناد عمر يقول :

وإن قوتي لك مع فصلك .

وكان هذا فصل الخطاب ومرجع الاختيار الذي لا تفويت فيه لفضل ولا قوة ،  
ولا تصيبع فيه لفرصة أبي بكر التي لا فرصة بعدها . أما عمر فله بعد ذلك  
فرصته حين يأتي أوابها .

أفكانت نصير إذن إلى عثمان بن عفان ؟

إن عثمان رضي الله عنه أسلم على يدى أبى بكر ، وقد كانت معه عصبية بنى أمية  
وهى عصبية قوية ، ولكن زعامة تلك العصبية كانت فى يد أبى سفيان يومذاك  
ولا طريق له إلى الخلافة وإن طمع فيها ، وتنزه عثمان مع هذا أن يركن إلى تلك  
العصبية ليزاحم أبا بكر فى حق لا يسكره ولا ينهسه عليه .

أفكانت تصير إذن إلى على بن أبى طالب !

إنما كانت تصير إليه بحجة بنى هاشم وهى الحجة التى اتقاها النبى جهده  
كما قدمنا ، وكان سو هاشم مع هذا لا يصدقون على اختيار واحد من رؤسائهم  
الثلاثة العباس وعلى وأحيه عقيل ، ولم يكن على بعد هذا وذلك قد جاور  
الثلاثين إلا بسنوات قلائل ، وهى عقبة من العقبات التى لا يسهل تذليلها فى  
أمة ترعى حق السن ومكة الشيوخ إلا بوصية ظاهرة من السى الشيخ . ولم  
تكن هناك وصية من هذا القبيل كما اتفق عليه كل سند وثيق .

أفكانت تصير إذن إلى معاوية بن أبى سفيان .

ما بحسب أن معاوية نفسه قام بخلده أن يرشح نفسه للخلافة السبى فى تدك  
الأومة ولو توافرت له السن وتوافرت له الدرائع التى تقربه من ذلك الأمل  
لأثرت قريش بالمبايعة كل بطن من بطونها غير بطن بنى أمية ، لأن الخلافة فى  
بنى أمية معناها دولة بنى أمية ، لاستطاعتهم بالخلافة وقوة العصبية أن يفرصو  
دولتهم على سائر البطون وسائر القبائل . . أما الخلافة فى سبى تيم ، رهط أبى  
بكر ، فهى خلافة قريش كلها ومعهم جميع المسلمين ، لتعذر قيام الدولة ببطن  
واحد من البطون الصغيرة واحتياج الحاكم إلى اتفاق هذه البطون من حوله  
ويقال مثل ذلك فى سبى عدى رهط عمر ، وفى سائر البطون القرشية م عدا  
هاشمًا وأمية .

فإذا كان انتحاب أبى بكر بالخلافة هو رأى قريش الذى لا محيد عنه ، وهو  
نية السبى التى ظهرت من أعماله وإشاراته ، فما الحاجة إلى التدبير بين السيدة  
عائشة وأبيها ، أو بين الرجال الثلاثة أبى بكر وعمر وأبى عبيدة ؟ ومن أين يأتى  
تحليل التدبير ولا موجب له من الفروض ولا من الإسناد ؟

ربما كان الدليل الذى هو أفطع من كل دليل على نفي التدبير المزعوم أن نُقدِّر أن التدبير لم يحصل قط فماذا كان يحصل بعد امتناعه - أكان يقع فى مسألة الخلافة شيء غير الذى وقع ؟ وما هو ؟ وما حيلة التدبير فى منعه ؟

فإن كان الجواب أن التدبير وترك التدبير يستويان ، وأن الحاجة إليه لا تخطر على بال عاقل ، فعلى ذلك غنى عن الأدلة الأخرى التى تنقصه وتُلقي به فى مراجع الطنون والأوهام .

نظر النبی إلى ذلك كله بالبصيرة الشاقفة التى تكشف له ما لا يكشف لغيره ، فسكت بالقدر اللازم ، وأشار بالقدر اللازم ، وعلم أنه قد أشار بما فيه الكفاية ، وأن ما زاد على ذلك فهو زيادة على الكفاية .

وما نشك لحظة فى أنه عليه السلام قد أحاط بكل ما يحاط به فى هذه المسألة خلال مرضه وقبل مرضه ، وقد اطمأن إلى كل ما يوجب الاطمئنان فى تقديره ، وأنه لو رأى حاجة إلى المزيد من التصريح بالقول القاصع لصرح وقطع بالقول ، لاسا لا يستطيع أن يفهم أنه عليه السلام يترك الإسلام والمسلمين عرصة للفشل والفتنة ثم لا يدع ذلك ، فى وسعه فكتهاؤه بما صنع هو الدليل على صمته ، سيحدث واستعنائه عن المزيد من التدبير .

وقد نظر عليه السلام ولا ريب - إلى كل ما يستحق النظر فى مسألة الخلافة وهو يرشح لها أبا بكر ذلك انترشيح الأبوى الذى يؤس بالرأى ولا يُقحم على القلوب

نظر إلى حق أبى بكر كما نظر إلى مصلحة المسلمين

فحق أبى بكر فى قيامه مقام النبى ظاهر ما فيه خلاف ، ولا موجب لتحطيه إلى غيره على وجه من الوجوه

ومصلحة المسلمين فى ولايته راجحة فى كل حساب ، لأن المسلمين كانوا يومئذ أحوج إلى عهد يكون امتداداً لعهد النبى حتى يحين وقت التوسع والتصرف ، وأحوج إلى ألفة غير مخشية ولا منقوسة تعوضهم من طاعتهم للنبى بتعاونهم على الصبغة والمودة وكل أولئك ميسور لأبى بكر قبل تيسره لغيره



من جلة الصحابة الأفرس . فهو في حرص شديد على الاقتداء بالسرى حرقاً حرقاً وخطوة خطوة لن يكون عهد إلا متدأ للعهد السوى حتى تتغير الأحوال فتأدن بالتغيير ، وهو في نفسه واجتماع القلوب إليه حير من يحلف الطاعة بالوعدة ومعالج الصرفة والانقسام بالرفق والتؤدة . في جد ما يدع إلى التصرف أو يدعو إلى الشدة فهناك الأعوان المخلصون له وللدن ، وهناك المشيرون الذين يقلسون الرأي على جميع الوحوش . فضله مع قوتهم وقوته مع فصلهم ، نعم العون ونعم الكفيل باحتماح أسباب الحول والخيلة ، كما ألمع إلى ذلك عمر بن الخطاب ثم حانت الساعة التي تهيأت لها مشيئة القدر وتهبأت لها مشيئة الناس على ذلك المحر المستقيم .

فتم في يوم واحد كل ما ينبغي أن يتم في يوم .  
ولاح للوهلة الأولى أن الخطر عظيم وأنه موشك أن يعصف بكل شيء وأن يخرج على كل سواء .

إذ اجتمع الأنصار يتحدثون بحقهم في الخلافة دون المهاجرين ، وهمت الفتنة أن تنطلق بعير عاب في طريق لا تعرف عقباء ، ولكنها فتنة مكبوحه قُدر لها ألا تقوى على الانطلاق من باب السقيفة التي نجمت فيها

فكان سعد بن عبادة زعيم القوم مريضاً لا تؤاويه في ذلك اليوم حركة النفس التي لا غنى عنها في ذلك المقام ، لأنها تعدى بالهبة والثقة من يستمعون إليه . فحملوه من بيته إلى السقيفة وهو لا يملك زمام عزمه ولا يقدر على الكلام ، فجعل يخاطبهم بلسان القريش منه وجعلوا يصغون إليه إصغاءهم إلى مريض يشعرون بصعفه لا إلى زعيم يشعرون بقوته وبأسه .

وكان القوم فريقين متنافسين منذ زمن قديم ، وهم الخزرج والأوس وبنيهما ملاحة دائمة تهون معها كل ملاحاة بين الأنصار والمهاجرين .

وكانت يقظة عمر وأصحابه أسرع من فتنة القوم . فبدموا السقيفة في إنائها وعالجوا الأمر حق علاجه . وقال كل منهم كلمة كانت أفد من سهم وأقهر من جيش . قال أبو بكر :

« إن هذا الأمر إن تولته الأوس نفسته عليهم الخرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس ، ولا تدين العرب لغير هذا الخي من قريش . . . نحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بشورة ولا تُقصى دوابكم الأمور »

وقال عمر :

« إن العرب لا تمنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهم منهم »

وقال أبو عبيدة .

« يا معشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وأزر فلا تكونوا أول من بذل وعير » .

ونادى أبو بكر القوم هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا .

فقال عمر وقال أبو عبيدة مثل مقالته :

« لا والله ! لا نتولى هذا الأمر عليك . فإنك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إدا هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا الذي ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك أسط يدك ببايعك .

فبايعه زعيم من الأوس ، بشير بن سعد ، وهو يقول :

« كرهت أن أنازع قومًا حقًا جعله الله لهم »

وقال النقيب أميئد بن حصير :

« والله لئن وليتها الخرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم نصيبًا أبدًا فقوموا بايعوا . . . » .

وبايع عمر وأبو عبيدة فكانما بايع المهاجرون معهما ، ولم يبق للخزرج الحاصري عزمٌ خلاف ، فتزاحموا على البيعة حتى أوشكوا أن يطنوا زعيمهم المريض ، وماتت الفتنة في مهدها لأب ولدت بعلة الموت

ولدت بعلة الموت فماتت وما اصطدمت بأكثر من ثلاثة رجال ، لم يستعدوا لها بأكثر من استعداد الساعة . بل لعلمهم أفلحوا في القضاء عليها لأنهم كانوا

أولئك الثلاثة بعينهم ولم يكونوا جمعاً حاشداً من المهاجرين المناظرين هلاحو  
لنقوم هداة ينصحون وهم يلوحوا لهم غزاة يقتحمون ، وكان ذلك أدعى أن  
يستمعوا إليهم كما يستمعون إلى الضيف الناصح دون أن تثار فيهم نخوة  
الغاضب لدماره ، المطروق عليه في عقر داره .

ولو أن سعد بن عبادة كان صحيحاً غير مريض ، وكان الأنصار حريصاً واحداً  
غير مقسم ، وكان المهاجرون الثلاثة متخلفين عن الموعد الحاسم ، أو كانوا غير  
أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، لو كانوا جمعاً كثيراً يحفز العداء والمقومة ، لجار أن  
يتعير مجرى الأمور وأن يكون للتاريخ الإسلامي شأن غير شأنه الذي عرفناه

ولكننا نخطئ كثيراً إذا نسبنا فصل الأنصار أنفسهم فيما صارت إليه الأمور ،  
فقد كانت لهم فيه مشيئة مستورة إن لم نقل مشيئة ظاهرة .

كانوا على الأرجح يقصون حق المجاملة لسعد بن عبادة ولا يسوون  
الريادة أو يتحدثون في الكفاح لا تتراع الخلفة . كانوا مسلمين قبل كل شيء  
ولم يكونوا طلاب ملأ قبل كل شيء ، وكانوا يحسون ما أحسه المسلمون  
جميعاً إذ قالوا إن النبي قد ائتمن أبا بكر على الدين بتقديمه للصلاة فكيف  
لا يؤتمن على الدنيا ؟ .

وكنوا يعلمون أن المهاجرين مقدمون في القرآن على الأنصار . ﴿ والسَّابِقُونَ  
الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ . فلم يكن  
إيمانهم بحقهم في الخلافة إيمان من يغضب لقواتها ويستमित في طلبها ، ولم  
يكن حرصهم على السلطان أشد من حرصهم على الدين ومصلحة المسلمين ،  
ولم يكن أملهم فيها إذ نازعتهم قريش عليها بالأمل الذي يطعم على كل  
تفكير ، فما هو إلا أن أشار بعضهم إلى منازعة المهاجرين حتى قالوا : « منا أمير  
ومهم أمير » . فل أن تستعيص بينهم حجج المهاجرين ثم تمت السبعة فلم  
يعودوا إلى تمحل الأسباب لتخروج على صاحب الأمر كما يفعل كل حريص  
على السلطان لتجوج فيه .

فهم ولا رب أصحاب مشيئة فيما صارت إليه الأمور ، على هذا النحو من المشيئة التي قد يجهلها صاحبها وهي حاصرة

وهم ولا رب إخوان يطلبون حقاً في الإرث المشروع إن ثبت لهم حق فيه ، وليسوا بأعداء ينظرون إلى أسلاب العدو ويستحقونها بالغلبة عليها ، كائنه ما كانت دريعتهم إليها من حق أو باطل .

على أنهم لو كانوا غير ذلك وكان نزاعهم إلى السلطان نزاعاً طاعياً لا يبالون فيه بالحقوق والحرمان لطل في هذا النزاع كل تدبير سابق لأبي بكر وصاحبيه ، ولكان مآل الفتنة إلى حكم الواقع الذي لا تعى فيه الخطط السابقة ولا العظمت البالغة . إذ قصوى التدبير من أبي بكر وصاحبيه أن يجمعوا حولهم كلمة قريش ورؤسائها وبطونها فأما أن يحضروا بالتدبير من لا يحصع لمير السيف ، وأن يدفعوا بالاتفاق بينهم ما ليس له دفع ، فذلك هو الحال بعينه ، أو ذلك هو الاتفاق على أساس خارجين من نطاق الاتفاق .

وصفة القول أن خلافة أبي بكر كانت نتيجة لكل مقدمة سقتها من فعل الحوادث ، أو من فعل أحد عامد أو غير عامد

وغير هذه الخلافة ما كان ليكون ، إلا الفتنة التي لا يجدى فيها اختيار هذا ولا اختيار ذاك ، ولا يُعنى فيها تدبير ولا تقدير .

ولسد ثحب أن يفهم من هذا أن أحداً من كبار الصحابة كان يعاف الخلافة ولا يسره أن يُحتار لهذا المقام العظيم ، وأن يراء الناس أهلاً للاصطلاح بعينه الحسين . فخلافة النبي شرف لا يأباه أحد بحبه ومعظمه ويتتبع خطاه ، وأقل من هذا المقام الأسى كان حقيقةً عند الصحابة أن يستشرفوا له ، ولا يكتفوا طموحهم إليه

حاء أهل عجران إلى السى عليه السلام فقالوا .

« انعت لنا رجلاً أميناً »

فقال : « لا بعثن إليكم أميًّا حق أمي » فاستشرف لها الناس . فعث أنا عبيدة بن الجراح

وروى أبو بكر هذه القصة حيث قال :

« قدم إليا وهذا حمران فقالوا يا محمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويُعطينا .

فقال

والذي بعثني بالحق لأُرسِلنُ معكم القوي الأمي » فما تعرضت للإمارة غيرها فرفعت رأسي لأريه نفسي ، فقال قم يا أبا عبيدة .

ولقد ساء أبا بكر بعد مبعثته الأولى أن ينقبض أناس عنه فظهر منه الاستياء حيث قال :

« أيها الناس ! ألسنت أحق الناس بها ؟ ألسنت أول من أسلم ؟ » .

وعبر ذلك أَيْضاً - لم يكن ليعقله العقل ولا بالذي يجمل بالكريم ، فكل رجل كريم يسوءه أن ينقبض أناس عنه وهو جدير منهم بغير لانقباض .

ولكن الغبطة بالخلافة شيء والاحتياج لها بالخيالة والديسياسة شيء آخر ، وهذا الذي تُنكره لأننا لم نجد دليلاً واحداً عليه ، ووجدنا أدلة كثيرة على بقيصه .

كذلك دبر أبو بكر وأصحابه كل ما يُحمد تدبيره بعد قيامه بالخلافة لتوطيد أركانها وحماية الإسلام غوائل عصيانها والتمرد عليها ، وجهدوا أن يفرقوا كل اجتماع يخشون مَعْبِيتَه على وحدة المسلمين فاقترحوا على العباس بن عبدالمطلب أن يجعلوا له عصبياً يكون له ولعقبه من بعده ليمسحوا الاتفاق بينه وبين علي ابن أبي طالب ، إن سعى إليهما من يسعى إلى التآليب والتخريب ، كما هم أبو سميان أن يعمل باسم الطوون القويه في قريش بنى هاشم وبني أمية ،

وصنع أبو بكر وأصحابه نظائر ذلك في سبيل الوحدة العربية والجماعة الإسلامية ، ولكن الذي صنعوه هو التدبير الواجب الذي لا يضير ، وقد يكون في تركه صير كبير .

لقد كان أبو بكر الخليفة الأول لأنه كان الصديق الأول ، ولأن شروط الخلافة التي اجتمعت له لم تجتمع لأحد غيره ، وليس له من منازع فيها وبين أهل عصره ، ولأن المزايا التي قد يرجحها بها أنداده وقرناؤه لا تصيب على الإسلام بولايتهم عليهم ومعونتهم إليه .

فكان اختياره أصبح اختيار عُرف في تاريخ الولاية ، وكانت التوفيقات فيها غنية عن التدبير والتمهيد .

فإن لعل بعض المكابرين مع هذا في دعوى التدبير فأنعم به تدبيراً ينقطع به الخلاف ، ويتم به أصبح استخلاف

## صفاته

كان أبو بكر في جملة ما وصفوه به أبيض تحالطه صمرة ، وسيماً ، غزير شعر الرأس ، خفيف العارضين ، نائبي الجبهة ، غائر العينين معروق الوجه ، نحيفاً مسترخي إزاره عن حَقْوَيْهِ (١) حمش الساقين (٢) ، محوص الفخذين خفيف اللحم في سائر جسمه

وكان أجناً - أي متحنى القامة - وقيل في وصف آخر : إنه حسن القامة لا يلحظ عليه انحناء ، ولعله كان كذلك أيام الشباب ، ولم يرد في أخباره وصف قاطع عن الطول والقصر ، ولكنه على ما يؤخذ من بعض تلك الأخبار كان أميل إلى القصر ، ولا سيما أخبار الهجرة مع النبي ﷺ .

فقد جاء في خبر الهجرة أن النبي ﷺ « كان على بعير ، وأبو بكر على بعير ، وعامر بن فهيرة على بعير ، فكان رسول الله ﷺ يشقل على البعير فيتحول عنه إلى بعير أبي بكر ، ويتحول أبو بكر إلى بعير عامر ويتحول عامر إلى بعير رسول الله ﷺ ... » .

فكان هو أخف من عامر بن فهيرة

وكان عامر بن فهيرة أخف من رسول الله ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ كعب علمنا من وصفه ربعة في الرجال فوق النصير ودون الطويل ، ولم يكن بين الامتلاء ، بل معتدلاً لا إلى السمن ولا إلى النحافة ، ولو كان أبو بكر رضي الله عنه أطول من الربعة لما كان أخف كثيراً من رسول الله ، وأخف كذلك من عامر بن فهيرة ، بحيث يظهر الفرق بينه وبينهما في حركة البعير الذي يتعاقبون ركوبه .

أما صفاته الخلفية فقد اتفقت فيها أقوال واصفيه ، ودلائل أعماله في

(١) الحقو موضع شد الإزار وهو الخفاصة .

(٢) دقيق الساقين مخلص من الاسترخاء .

الجاهلية والإسلام ، فكان أليفاً ودوداً حسن المعاشرة ، وكان مطبوعاً على أفضل الصفات التي تتألف له الناس فيألفونه ، ومنها التواضع ولبس الجانب فلم يتعال على أحد قط في جاهليته ولا في إسلامه ، وكان في خلافته أظهر تواضعاً منه قبل ولايته الخلافة فإذا مدحه ماذح قال اللهم أنت أعلم مني بنفسي ، وإذا سقط منه خطام ناقته وهو راكب نزل منها ليأخذه ولم يأمر أحداً بمساوئته إياه . وبلغ من بعضه الخيال أنه كان ييقصها حتى حيث يغتمرها الناس من ربائب الحِجَال . فدخل يوماً على السيدة عائشة رضى الله عنها وهي تمشي وتنظر إلى ديل ثيابها فقد يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن ؟ قالت ولم داك ؟ قال أما عدمت أن العبد إذا دخله العُحْبُ بزينه الدنيا مقلته ربه عرو وجل حتى يفارق تلك الرينة ؟ فلما برعت تلك الرينة التي أعجبتها فتصدقت بها قال : عسى ذلك يكفر عث .

ولم يكن تألفه الناس محض مجاملة باللسان بما يستسهله معظم المشهورين بالتودد والمجاملة ، ولكنها كانت ألفة المجلة والكرم والسخاء ، فكان كما قال ابن الدُّغْنَةِ لقريش ، وقد همَّ أبو بكر أن يهجر بلده : « اتخَرَجُون رجلاً يُكسب المعدم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الصيف ويمين على نوائب الحق ؟ »

فهو ودود كريم لا يضمن بماله وجاهه في سبيل الكرم والسخاء

ومع هذه المودة وهذه الألفة كانت فيه حدة يغالبها ولا يستعصى عليه أن يكبح جماحها . ووصف بها نفسه ووصفه بها أقرب الناس إليه وأصدقهم في وصفه . فقال في حطة من أوائل خطبه بعد مبايعته : « اعلموا أن لي شيطاناً يعتريني فإذا رأيتوني غضبت فاجتنبوني . »

وقال عمر بن الخطاب . « وكسب أداري منه بعض الحد أي الحدة - » وذلك حين أعدّ كلاماً يقوله في سقيفة بني ساعدة ، مخالعة أن يحتد أبو بكر في ذلك المقام .

وسئل عنه بن عباس فقال . « كان خيراً كله على حدة كانت فيه »

إلا أنها كانت حدة تنم على سرعة التأثر فيه ، فإذا لم تكن غضباً بعاليه



ويكبحه فهو سريع التأثر إلى الرحمة والرفق في جملة أحواله ، يميل إلى الحزن والأسى ويعطف على الحزين والأسوان ، أو كان كما وصفته عائشة رضي الله عنها « عزيز الدمة وقيد الجوانح<sup>(١)</sup> شحى الشيخ » . « أسيفاً متى يقيم مقامك - تخاطب رسول الله لا يسمع الناس » .



وكان في جاهليته وإسلامه وفوراً جميلاً السمت يعار على مروءته ويتجنب ما يريب فلم يشرب الخمر قط لأنها مُحلّة بوفار مثله ، وسئل : لم كان يتجنبها في الجاهلية فقال « كنت أصون عرصي وأحفظ مروءتي ، فإن من شرب الخمر كان مُصيّعاً في عقله ومروءته » ، ومن مروءته أنه كان يتقي كل ما يورده موارد الشهوات دعاه رجل في الجاهلية أن يستصحبه لحاجة يُعينه عليها ، فراه يمر في طريق غير التي يمر منها فسأله أين تذهب ؟ هذه الطريق . . . قال الرجل إن فيها أناساً نستحي منهم أن نمر عليهم . قال عليه السلام : تدعوني إلى طريق نستحي منها ؟ ما أنا بالذي أصاحبك .

وكان لمروءته يتحاشى السقط من الكلام ، فلا يتكلم إلا أن يدعوه داع إلى قولة خير فيقولها إدد ويصدق في مقالته ومن وصياه لبعض عماله : « إذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام يُنسى بعضه بعضاً »

وقد اشتهر بالصدق في الجاهلية والإسلام ، فكان « صامناً » قرش المقبول الضمان . لا يعد أحداً إلا وفي وصدق الدائن والمدين ووكلت إليه الديات والمغارم فلم يكن يحمل شيئاً منها إلا اطمأن إليه الناس ، فإن احتملها أحد غيره خجلوه ولم يصدقوه .

وما امتحن صدقه شيء إلا كان صدقه أثبت وأقوى . فحطب رسول الله ابنته عائشة حين ذكرتها له خولة بنت حكيم . وكان المطعم بن عدي قد حطبها قبل ذلك لابنه ، فقال أبو بكر لزوجته أم رومان : « إن المطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه والله ما أحلف أبو بكر وعداً قط » ثم أتى مطعماً وعنده امرأته ،

(١) لقيد الجوانح المحزون القلب

فسأله ما تقول هي أمر هذه الجارية ؟ فأقبل الرجل على امرأته ليسألها . ما تقولين ؟ فأقبلت هي على أبي بكر تقول لعدا إن أنكحنا هذا الصبي إليك نخصته وتدخله في دينك الذي أنت عليه . فلم يجبه أبو بكر وسأل المظعم من عدى . ما تقول أنت ؟ فكان جوابه : إنها تقول ما تسمع .

فتحلل أبو بكر عند ذلك من وعده ، ولم يتحلل منه قبل ذلك على ما في سبب الرسول من شرف ، وما في قلبه من إعزاز له يفوق كل إعزاز

وكانت شجاعته كفاء صدقه ووفائه بوعده : سواء منها شجاعة الرأي وشجاعة القتال . فلما أسلم لم يبال أن يعلن إسلامه وأن يجهر بصلاته ودعائه ، يصيبه في ذلك ما يصيب ، ولما وجب القتال كان هو أقرب المقاتلين إلى رسول الله في كل غزوة وكل مارق من مارق الحلال ، وانهزم كثير من الشجعان في بعض الملاحم الحازية ، ولم تذكر له قط هزيمة في ساعة من ساعات الشدة ، ولا ثبت نفر قط حيث يصعب الثبات إلا كان هو بين أول الثابتين . ولم تكن وقعة قط أشد على المسلمين من وقعتي أحد وحنين ، ولئى هيهما من ولئى واستشهد من استشهد وتردد في صفوف العسكرين أن الرسول ﷺ كان بين المستشهدين . فذعر الضعيف وقال القوى : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله . .

ففي وقعة أحد أشد هاتين الوقعتين - كان أبو بكر في طليعة الثابتين ، ونظر إلى حلقة من خرع قد نشبت في جبين صديقه وصفيه ونسبه مشعه أن يصاب هذا المصاب ، وانكب عليها ليرعها ، لولا أن أقسم عليه أبو عبيدة ليسبقه هو إلى نزعها ، فجذبها بشيئته جذبا رفيقا حتى برعها وسقطت ثيابه .



وعلى هذا الخط الافر من المزايا الخلقية كان له قسط محمود من المزايا العقلية التي يمتاز بها ذوو الأقدار من أهل زمانه ، فقليل فيه وفي صاحبه أبي عبيدة ' إيهما « ذاهبتا قريش » . وأثرعه أنه كان أسرع الناس إلى الفطنة لما يوحى به النى ﷺ بالتلميح دون التصريح . وما جاء في الحديث الشريف عن علمه وفطنته أنه ﷺ قال :

« كَأَنى أُعْطِيتَ عَسًا<sup>(١)</sup> مَمْلُوءًا لِبَنَاتٍ فَشَرِبْتَ مِنْهُ حَتَّى امْتَلَأَتْ ، فَرَأَيْتَهَا تَجْرِي فِي عُرُوقِي بَيْنَ الْجِلْدِ وَاللَّحْمِ ، فَفَصَّلْتُ مِنْهَا فَصْلَةً فَأَعْطَيْتُهَا أَبَا بَكْرٍ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ! هَذَا عِلْمٌ أَعْطَاكَ اللَّهُ ، حَتَّى إِذَا امْتَلَأَتْ فَصَلْتَ فَصْلَةً فَأَعْطَيْتَهَا أَبَا بَكْرٍ . قَالَ ﷺ : قَدْ أَصْنَمَ » .

\*\*\*

وَكَانَ لِأَبِي بَكْرٍ حِظٌّ وَافِرٌ مِنَ الْمَلَكَةِ الرُّوحِيَّةِ إِلَى جَانِبِ مَا عِنْدَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَلَكَةِ الذَّهْنِيَّةِ ، وَتِلْكَ الْمَلَكَةُ الْخَلْقِيَّةُ ، وَبَعْنَى بِالْمَلَكَةِ الرُّوحِيَّةِ مَا نَسَمِيهِ الْيَوْمَ بِنُقْطَةِ الضَّمِيرِ

وَمَنَاطِ الضَّمِيرِ أَنَّ يَرعى الْإِنْسَانُ حقَّ غَيْرِهِ ، وَأَنْ يُحْسِنَ وَلَا يَسِيءَ ، وَهِيَ حَصْلَةُ كَانَتْ مَلْحُوظَةً فِي أَبِي بَكْرٍ مِنْ أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ قَبْلَ أَنْ يَدِينَ بِالْدِينِ الَّذِي يَأْمُرُ بِالْخَيْرِ وَيَنْهَى عَنِ الشَّرِّ ، وَيَدْعُو إِلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَاجْتِنَابِ الْبَاطِلِ . فَلَمَّا جَاءَ هَذَا الدِّينَ بَنَى مِنْهُ عَلَى أَسَاسٍ قَدِيمٍ ، وَبَلَعَتْ بِهِ نَفْسَهُ قِصَارَى مَا تَبْلَعُهُ نَفْسٌ طَيِّبَةٌ مِنْ رِعَايَةِ حَقُوقِ النَّاسِ . وَمِنْ كَلَفِ بِالْخَيْرَاتِ وَسَحْطِ عَلَى الشَّرُورِ

قَالَ رِبِيعَةُ الْأَسْلَمِيِّ : « جَرَى بَيْسَى وَبَيْنَ أَسَى بَكْرٍ كَلَامٌ فَقَالَ لِي كَلِمَةٌ كَرِهْتُهَا وَبَدَمَ ، فَقَالَ . يَا رِبِيعَةُ ! رَدَّ عَلَيَّ مِثْلَهَا حَتَّى يَكُونَ قِصَاصًا قُلْتُ : لَا أَفْعَلُ ! قَالَ : لَتَقُولَنَّ أَوْ لَا سَتَعْدِينَ عَلَيْكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ . فَقُلْتُ . مَا أَنَا بِفَاعِلٍ . فَانْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ وَجَاءَ أَمَّاسٌ مِنْ أَسْلَمَ فَقَالُوا لِي : رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ ، فِي أَيِّ شَيْءٍ يَسْتَعْدِي عَلَيْكَ وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَكَ مَا قَالَ ؟ فَقُلْتُ : أَتَدْرُونَ مِنْ هَذَا أَبُو بَكْرٍ الصَّدِيقُ ؟ هَذَا ثَانِي اثْنَيْنِ ، وَهَذَا خَوْشِيَّةٌ فِي الْإِسْلَامِ . إِيَّاكُمْ لَا يَلْتَمِصُ فِيرَاكُم تَنْصَرُونَنِي عَلَيْهِ فَيَغْضَبُ ، فَيَأْتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَيَغْضَبُ لَغَضْبِهِ ، فَيَغْضَبُ اللَّهُ لِعُضْبِهِمَا فَيَهْكَ رِبِيعَةُ . وَانْطَلَقَ أَبُو بَكْرٍ وَتَبِعْتَهُ وَحْدِي حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ كَمَا كَانَ . فَرَفَعَ إِلَيَّ رَأْسَهُ فَقَالَ : يَا رِبِيعَةُ ! مَا لَكَ وَالصَّدِيقُ ؟ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : كَانَ كَذَا وَكَذَا ، فَقَالَ لِي كَلِمَةٌ كَرِهْتُهَا ، فَقَالَ لِي : قُلْ كَمَا قُلْتَ حَتَّى يَكُونَ قِصَاصًا فَأَبَيْتُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَجَلٌ لَا تَرُدُّ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ . . . » .

(١) الْعَسَ الْإِمَاءُ الْكَبِيرُ أَوْ الْقَدَحُ الْكَبِيرُ

وهو يكره أن يسيء لأنه يكره أن يُساء ، ويعلم ما تُوقعه الإساءة في النفس من ألم يعلمها على الحلم والأناة حتى في المحصر الذي تُراص فيه على غاية الحلم وغاية الأناة .

بينما رسول الله حالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر فأداه ، فصمت عنه ثم أداه الثانية فصمت عنه ثم أداه الثالثة فانتصر منه فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر فقال أوجدت عليّ يا رسول الله ؟ فقال رسول الله : لولئك من السماء يكذب به قال ، فدما انتصرت وقع الشيطان

ولا شك أنه درس من الدروس السيوية يداوى به بوازع الحدة في صاحبه الأمين ، لأنه كان يهينه لأمر عظيم أمر ينبغي لمن تولاه أن تؤلمه إساءته إلى الناس فوق ألمه لإساءة الناس إليه .

ومن نقطة الصمير فيه أنه لم يظن أن تستقر في جوفه لقمة يشك في مأثاقه ؛ فكان له مملوك يعمل عليه ، فأتاه ليلة يطعم ف تناول منه لقمة . قال المملوك : مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ قال حملني على ذلك الجوع .. من أين جئت بهذا ؟ فأنبأه المملوك أنه مرّ يقوم كان يرقى بهم في الحاهلية فوعده ، فلما أن كان ذلك اليوم مرّ بهم فإذا عرس لهم فأعطوه ذلك الطعام !

قال الصديق : إن كدت لتهلكني .

وأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ - وجعلت اللقمة لا تخرج - فقيل له إن هذه لا تخرج إلا بالماء ...

فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها .

قيل له : يرحمك الله ! كل هذا من أجل لقمة ؟ فقال : لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها .

وما نحسب أن يوماً مرّ به دون أن يطيح فيه داعي الإحسان ، وسليقه البر والمودة سئل عنها أو لم يسأل

فكان من عادة السيّد أن يسأل أصحابه حيناً بعد حين عما ابتلوه من

الخيرات فلا يكتمونه شيئاً لأنه يسأل ويريد أن يجاب ، لئلا يتبع جوابهم عظة من العظات ، أو يعقبه بحديث يؤثره عنه .

صلى النبي ذات صباح فلما قضى صلاته سأل : أيكم أصبح اليوم صائماً ؟ قال عمر : أما أنا يا رسول الله فقد بت لا أحدث نفسي بالصوم ، وأصبحت مفطراً .

وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، بت الليلة وأنا أحدث نفسي بالصوم ، فأصبحت صائماً .

ثم سأل النبي : أيكم عاد اليوم مريضاً ؟

قال عمر : إنما صلينا الساعة ولم يرح ، فكيف نعود المريض ؟ وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله . أحبروني أن أحى عند الرحمن بن عوف مريض وجع ، فجعلت طريقى عليه ، فسألت عنه ، ثم أتيت المسجد

ثم سأل النبي : فأياكم تصدق اليوم بصدقة ؟

قال عمر : يا رسول الله ما يرحا معك مذ صلينا فكيف نتصدق ! وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، دخلت المسجد ، فهذا سائل يسأل وابن لعد الرحمن بن أبي بكر معه كرة خبز ، فأحدثها فأعطيتها السائل فقال النبي : فأبشر بالجنة . أبشر بالجنة !

لا جرم يقون عمر : ما سبقت أبا بكر إلى خير قط إلا سقني إليه . ولا جرم يعول عليّ : هو السباق . والذي نفسي بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبو بكر .

\*\*\*

لقد وصف لنا الصديق بأوصاف نستطيع أن نعيدها اليوم بما ألفناه من أساليب العصر فنراها على وفاق لحقائق تلك الأوصاف ودلالاتها ، وذلك آيين الهيئات عن صدق ما وصفوه به في الجاهلية أو الإسلام

فمن جملة الملامح والسمات التي وُصف بها يتبين لنا أنه كان من أصحاب المزاج العصبي الناشئ في وراثة كريمة ، فهو عصبي كريم النزعات والطوايا .

ولا يندر في أصحاب هذا المزاج أن يتميزوا بحدة الذكاء وسرعة التأثر والطموح إلى المثل العليا والحماسة لما يعتقده ، والتعلق بما يؤمنون به ويصدقونه ، والتقدم في العقائد والدعوات .

بل هذا هو الغالب فيهم ، كما نشاهد اليوم في كل دعوة دينية أو اجتماعية أو سياسية ، لن نخلو من إناس في مزاج أبي بكر وحلائقه الجسدية والنفسية ، ينصرون بها ويتشبثون بها ويؤمنون بدعائهم ولا يكتفون من سبيلهم أو سبيلها

ورق ، كان الرجل من بيت من بيوت الشرف والوجاهة شأنه - إذ يكون على هذا المزاج - أن يعتصم بالوقار ودواعيه ، وأن يستزيد من حلائق الصدق والمروءة التي رُكبت فيه .

ولم يكن أبو بكر على علمنا صاحب « الشخصية الباطشة » التي تروع الناظر إليها لأول وهلة .

ولم تكن سيادة بيته سيادة جبارين يملكون الناس بالبأس والسطوة .

فسبيله إذن أن يعتصم بصدقه ومروءته ليحفظ بهما كرامة الشرف الذي ينمى إليه ، وأن يستزيد من ذلك الصدق وتلك المروءة بما يزيدهما في التمكين ويُملئ لهما في الثبات والرسوخ ، وأن يتحجب فلتات الطع واللسان ويتنزه عن كل مخيل بالوقار مَزْر بالصبيان ، لأن وقاره وصيانه هما أحجاز القائم بينه وبين كل مهانة واستخفاف ، ولو كان باطش المظهر أو باطش السيادة لقد يستعنى عنهما بعض الاستغناء في بعض الأحيان . أما وهو بعيد من البطش في مظهره وسيادته فليس من شأنه أن يفقل عن سمات الوقار والمروءة طرفة عين .

وقد عرف الصديق بالحدة وهي أيضاً من حلائق هذا المزاج التي يُغالبها من يحرصون على وفارهم ومروءتهم أن يستهدفوا لجرائر الحدة أو ينلغوا في غير عمل حميد

إلا أن يُمس الرجل فيما هو من أخص الخصائص التي يقوم عليها مزاجه

وتستقيم عيها عاداته وسماته فعندئذ تعسر المعالجة وتبرز الحلة من مكمناها ، وهي على حق إذن في برورها .

لهذا نرجع إلى حوادث أبي بكر في الحدة والصرامة على خلاف عاداته من الرحمة والألفة ، فهذا هي كلها بما يحس الصدق والتصديق أو بحس الإيمان ، أو يجري مجرى الاستهزاء الذي يحس الوقار .

بلغ أقصى ما بلغ من غضب وحدة في عقاب الفجاءة بن إياس بن عبد ياليل وبقي طوال حياته يدم على حدته في ذلك العقاب .

ومادا صبح الفجاءة حتى هاج منه تلك الحدة التي يغالبها أقوى مغالبة ؟  
أثاره في مكمّن الثورة فيه . .

كذبه الأمانة ، وخذعه وخدع المسلمين ، وقتل من قتل من الأمن ، وقلما غضب إنسان كما يغضب الصادق لصدقه المخدوع ، ولا سيما الخديعة التي فيها خدر وسفك دماء .

جاءه يطلب سلاحاً ليحارب به المرتدين ، فأخذ السلاح وحارب به المسلمين الأمنير ، وعاث في الطريق ينهب ويسلب ويهدر الدماء ، فلما وقع في الأسر لم يجزئه عنده إلا أن يقذف به في النار .

وجاء له رجل من أحبار اليهود اسمه فنحاص في الآية : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرصاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ . فقال فنحاص مستهزئاً بالله والنبي : « لو كان عنا غنيّاً ما استقرضتنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه ! » .

هذا هو الاستهزاء .

وهذا هو المساس بالإيمان .

وكلاهما لا يطيقه الرجل المؤمن الوقور وتعليه فيه الحدة إن هو غلبها في غير ذلك من الأمور .

ولقد عاش أبو بكر ما عاش أليفاً مؤلفاً لقومه ، محبباً محبوباً فيمن حوله ،

رحيمًا بالعرباء فصلًا عن الأقربين وفصلًا عن الأبناء ، إلا أن هذا الرجل الرحيم  
الآليف يهض إلى سريره اسه ودعا عليه بالهلاك حين شهد لحرب مع  
المشركين ، ورأى البرّ عاية السره - أن يهض هو لمباررته ولا بدعه لأحد غيره  
من المسلمين .

كان ذلك يوم بدر ، وكان ابنه عبد الرحمن من أشجع الشجعان بين العرب ،  
ومن أنفذ الرماة سهمًا في قريش . فتقدم الصفوف يدعو إلى البراز ، وقام أبوه  
يجيب دعوته ، لولا أن استنقاه النبي ﷺ ، وهو يقول له : متعنى بنفسك .

ولما أسلم عبد الرحمن قال لأبيه : لقد أهدمت سي يوم بدر ففُضِفْتُ عنك  
أي عدلت عنك . ولم أقنلك ، فقال أبوه : لكك لو أهدفت لي لم  
أضِفْ عنك .

وهكذا نعلم أين تبدر الحدة وأين تبدر الصرامة من خليقة أبي بكر المسالم  
الوديع ، فحيثما روى راو أنه احمد أو اشد فليعلم عن يقين أن في الأمر شيئًا  
يمس التصديق والإيمان ، أو يمس المروءة والوقار ، فلا تأتي الحدة أو الشدة يومئذ  
في غير موضعها من الطبيعة التي ولد بها ومزج عليها .

رجل له خصائص المراح العصبى في البنية الدقيقة .

ورجل من عنصر كريم وأرومة طيبة .

ورجل له قدم في السيادة واعتصام بالوقار والمروءة .

فكل ما روى عنه فهو موافق لهذه الخصال ، منتظم في هذه الخصائص ،  
معقول في هذا التركيب في الخلق والخلقة ، وهو من ثمّ دليل على صحة  
الوصف وصحة السيرة على الإجمال .

ولن يكون هذا الرجل على هذا التكوين إلا كما وصفوه ونقلوا عنه . حديد  
الطبع ، مستمسك الخلق ، سريع التأثر ، قوى العاطفة ، محبًا للاعتقاد ، حمسًا  
في اعتقاده ، صادقًا في وعده ، كما نستطيع أن نعرف من طبعوا على هذا المزاج  
ونراهم بينا رأى العين ، أو نعرفهم على السماع معرفة اليقين .

ونحن فيما نتوخاه من المضاهاة بين أوصاف السابقين وأوصافنا نحن



المعاصرين إنما نريد أن نُقصي إلى المقياس الصحيح للتصديق أو التكذيب ،  
والبحث الصالح للتشكيك أو التغليب . فإذا كانت الأوصاف التي نقرؤها مطابقة  
للأوصاف التي نعتقد والتي نعهدا فذلك هو برهان الصحة في كل مقياس .

وإنه لمن واجبنا في عصرنا هذا أن نقضي على آفة العصر التي أوشكت أن  
تغلب فيه على كل آفة ، وهي الطر الشائع بين المنفيهين والمتهمين أن البراعة  
كل البراعة في التكذيب ، وأن الجهالة كل الجهالة في التصديق ، وليست  
الجهالة كلها في الحقيقة هنا ، ولا البراعة كلها في الحقيقة هناك . .

فكثيراً ما تكون العفلة في التكذيب أعظم من العفلة في التصديق ، وكثيراً  
ما يكون بخس الشيء الثمين أدل على الغباء وأصعب للمسعة من إغلاء الشيء  
الحسن ، في تسويم التجارة أو تسويم الصنائع والعقول

خذ مثلاً لذلك حسبات أبي بكر اليومية التي سأله عنها السيوطي ،  
فاتفق في يوم سؤاله عنها أنه كان قد أهداها جميعاً على وجه من الوجوه .

تدمح على وجه المتفريق المتشكك مسحة التردد وهو يتبع ذلك الخسر كأنه عما  
لا يجوز ولا يتكرر على هذا المنوال .

فإذا سأله لم التردد وفي وسعك أن تبلغ بالخسر إلى مقطع المقير ؟ لم  
تقف هنا ولا تتابع الطريق إلى منتهاه ؟ إنك لتعلم إذن أن التردد سحب حين  
يكون اليقين منك على مد اليدين تتاوله إن شئت متى مدتهما إليه

ماذا يكون إن صدقنا الخسر ؟

وماذا يكون إن كدنا ؟

إن صدقنا ، خسر فكل ما هالك أن إمام في الدين مطموحاً على الكرم  
والكرامة قد جرى على سنة سيه وهديه ، فأصبح صائماً وعاد مريضاً وتصدق  
على فقير بكسرة خبز وجدها في يد حفيده .

وليس هذا بممتنع ، بل هذا أقرب الأشياء أن يقع ، ولا سيما إذا أضعفناه إلى  
جملة أخيار أبي بكر من إحسانه في الجاهلية والإسلام ، ومن إنفاقه إنال كنه  
في سبيل الخير حتى مات وهو فقير

فإن كذبنا الخبر فماذا يتفاضلنا تكذيبه من جهد للعقل واعتساف  
للتفكير والتحمين ؟

إن كذبنا وحب أن نعتقد أن أبا بكر رضي الله عنه قد أحاط النبي صلى الله عليه وسلم بغرور  
الحق ، وأنه يتجاسى صدق المقال في أقص المواضع بصدق المقال ، فلو جاز أن  
يكذب على كل إنسان لما جاز أن يكذب على الرجل الذي صدقه ، وحاطر  
بالماء والبنين والحياة في سبيل تصديقه فمن الذي يقبل هذا الفرض ولا يرى  
أن كل فرض حونه أدنى إلى القبول ؟

ومن الذي يعقل ثم يحيل إليه أن العقل يميل به إلى هذا التكذيب ولا يميل  
به إلى ذلك التصديق ؟

ونقول : إن هذا حائر لنتمادى مع التفهق إلى أقصى مداه فما الذي يتفاضلنا  
جوازه مرة أخرى من جهد واعتساف ؟

يتفاضلنا أن نقبل شيئاً يقرب من المستحيل .

إن الرجل الذي يجترئ على الكذب في هذا المقام لا ينطع على الصدق ،  
ولا يخفى كذبه على الناس ، فكيف به وهو مشهور بالصدق في كل ما قال ،  
والوفاء بكل ما وعد ؟ وكيف به وهو مشهور بالصدق في شؤون الضمان والمغارم ،  
وهي شؤون لا يخفى التدليس فيها إلى زمن طويل ؟ وكيف به وهو مشهور  
بالصدق قبل أن يدين بالدين الذي يحضه عليه ؟

أيجوز أن أكذب الكاذبين ، بأمر الدين وبغير أمر الدين ، يشتهر بأنه  
أصدق الصادقين ؟

تصديق هذا عملة أدعى إلى السخرية من كل عملة ! ولا سيما إذا لحا  
الإنسان إليها فراراً من القول بأن إماماً شبيهاً بالأنبياء يصوم أيامه ويعود مرصاه  
ويعطى مسكيناً كسرة من الخبز ، وهو قد أعطى الألوف وأنقذ المعسرين وضمّن  
من ليس له ضمان .

وعلى هذا النحو تتوخى التصحيح والترجيح فيما تأخذ به من أوصاف هؤلاء

العظماء أقرب المقاييس إلينا أن يكون تكذيب الوصف أصعب من تصديقه في تقدير العقل والبديهة ، وفيما نعهده اليوم من حقائق هذه الأوصاف .

وكذلك أوصاف الصديق كما نقلها المقلون وكما يفهمها اليوم الفاهمون ، فإن الأقدمين ذكروا أوصافاً متفرقة لم يقصدوا أن يجمعها نحن ، ولا قصدوا بعد جمعها أن نعرضها على علم النفس ووقائع الحياة ، كما وضحت لنا بمصباح العلم الحديث .

ولكننا جمعنا تلك الأوصاف وعرضناها على علم النفس فوجدنا بينها ذلك التناسب الذي يقضى بتصديقها ، وينمى الطمة عن استقامتها في جملتها

فأبو بكر كما وصفوه رجل لا محالة من أصلاء المزاج العصبي المابتين في منبت الشرف والمروءة ، وقد قالوا : إنه كان يحدو بماله ، ومثل هذا الرجل خليف أن يجود بماله ، وقالوا : إنه يحتد ويعطف ، ومثل هذا الرجل معهود في حديثه وعطفه ، وقالوا : إنه يروض نفسه على السمات<sup>(١)</sup> والكرم ، ومثل هذا الرجل لا يستغنى عن هذه الرياضة ولا يعجز عنها ، وقالوا : إنه يشتد في اعتقاده ، وليس فيما شهدناه وخبرناه أشد من اعتقاد مثله .

قالوا ذلك ولم يقولوا عجيباً ولم يقل أحد ما ينقضه ويهينه وله حجة فيه

فإذا كانت للعقل أمانة فالأمانة في تقرير هذه الأوصاف كما فهمناها بالاستقراء وكما رواها الرواة في مجمل الأنبياء ، وإذا كانت للعقل مهانة فمهانة العقل أن نعطله عن فهم حقيقة ماثلة ، لغير شيء من الأشياء .

(١) السمات الاختلاف والوقار



## مفتاح شخصيته

كان أبو بكر كما رأينا رجلاً عصبى المراج دقيق البنية ، خفيف اللحم صميم التركيب .

تكوين يغلب على أصحابه أحد أمرين : إن كانوا من كرام النخبة<sup>(١)</sup> فهم مطبوعون على الإعجاب بالبطولة ، والإيمان بالباطل

وإن كانوا من لئام النخبة فهم مطبوعون على الحسد والكيد ، وهما ضرب من الإعجاب المعكوس يؤدي إليه انعكاس الطبيعة ، والإحساس بالعظمة في غير معاطة بينهم وبينها ولا ارتياح إليها .

والحسد هو إعجاب اللئيم عند شعوره بالعظمة ، أو هو التحية التي يؤديها اللئيم إلى العظمة حسماً عنده من التواء وارتكاس<sup>(٢)</sup>

ولهذا يصح أن يقال : إن أصحاب البنية الدقيقة والمراج العصبى مطبوعون على الشعور بالعظمة على حال من الأحوال ، فإن كانوا كراماً شعروا بها مختبطين مؤيدين ، وإن كانوا لئاماً شعروا بها محققين مشتطين ، ويندر فيهم حداً من يشذ عن هذه أو تلك من الخصال

ولقد كان أبو بكر رجلاً كريماً أليفاً من أهل الخير والمودة ، فلا جرم كان الإعجاب بالبطولة طبعاً متأصلاً فيه ، مقروناً بكل ما في الإعجاب من حب وثقة وإيمان ، ولا جرم كان هذا الإعجاب « مفتاحاً لشخصيته » مفسراً لكل ما يلتبس من أعماله ، مميزاً لكل ما يتشابه بينه وبين غيره من الصفات

فلنا في كتابنا عن « عبقرية عمر » : إن مفتاح الشخصية « هو الأداة الصغيرة التي تفتح لك أبوابها ، وتنمذ بها وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت هي كثير من المشابه والأعراض . فيكون البيت كالحصن المعلق ما لم تكن معك

(١) النخبة - الطبيعة

(٢) ارتكاس - وقع في أمر

هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب ، فإذا عاجلته بها فلا حصن ولا إغلاق .

وقتنا :

« ليس مفتاح البيت وصفًا ولا تمثيلًا لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها ، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دحائلها ، ولا تزيد . »

فشخصية الصديق لها مفتاح قريب المناول وهو هذا المفتاح ، مفتاح الإعجاب بالبطولة .

وهذا الإعجاب بالبطولة هو الوَشم الذي يسم به كل عمل من أعماله وكل بية من بياته ، وهو السر الذي نراه كامسًا في كل رأي يرتثيه وكل قرار حاسم يستقر عليه .

والإعجاب بالبطولة في التاريخ الإنساني شيء عظيم ؛ ليس بعد البطولة منزلة يشرف بها الإنسان أشرف من منزلة الإعجاب بها والركون إليها . لأن الفضيلتين معًا لازمتان جنبًا إلى جنب في كل أمر جليل ثم في تاريخ الإنسان ، وكل طور من أطوار التقدم ارتقى إليه .

وليقبل أصحاب التحليل العلمي ما يشاعون .

وليقبل أصحاب القياس المطلق ما يحبون .

فشاءوا أو لم يشاءوا ، وأحموا أو لم يحبوا ، لقد تم بغير التحليل العلمي وبغير القياس المطلق كثير من العظائم في تاريخ الإنسان ، ولم يتم قط ولن يتم فيما يرى . أمر عظيم واحد بغير البطولة وبغير الإعجاب بالأبطال

لها برهانها من الواقع كبرهان الأقيسة المنطقية والتجارب العلمية فالرجل الذي ينهض له البرهان النفساني على الثقة يبطل من الأبطال فيثق به ويعينه على عمله ليس بالرجل الذاهب على غير هدى أو الأخذ بغير دليل كلا

معمله وتتيحة عمله كلاهما برهان يعنيه عن مصع التحليل وعن قضايا المنطق ، ويعنى العالم كذلك عيهما إذا نظرنا إلى العمل ثم نظرنا إلى النتيجة ، ونظرنا قبل هذا وبعد هذا إلى طبع الإنسان .

خذ لذلك مثلاً حديث الأعاجيب التي سمعها أبو بكر في أيام الدعوة الحمديّة فصدقها لأنه يصدق صاحبها ويركن إليه

وهو قد ثاب إلى معمل التحليل فقال له المعمل ، به لم يسمع بأمثال هذه الأعاجيب ، وليس لديه مسار لها يصلح للتأييد أو التعيد

وهو قد ثاب إلى قضايا المنطق فقالت له إنها لا تعرف هذه الأقيسة ولا هذه المقدمات ولا هذه البراهين .

وهو قعد في مكانه بعد هذا وذاك ، لأن معمل التحليل لا ينشط به إلى الحركة في هذا الطريق ، ولأن قضايا المنطق لا تزجيه إلى الجهاد في هذا الميدان أفكاسب هو إذن ؟ أفعاقل هو إذن ؟ أمحق ما انتهى إليه وما انتهت إليه الجريرة العربية من جراء مسكونه وإحججه ؟

إن الجريرة العربية لا ترح شيئاً بذلك التمهحيص المزعوم ، وإن العالم الإنساني لا يريد عقلاً ولا علماً ولا تحليلاً ولا قضاي منطق بذلك الإحجام الذي استنقر عليه ، وإن أبا بكر لن يكون حيراً من أبي بكر ، والديب لن تكون حيراً من الدنيا ، والتفكير لن يكون حيراً من التفكير ، بل كل من أولئك فاقد وخاسر ومنقوص .

ونصارى ما في الأمر أن رجلاً شك فلم يعمل شيئاً ، ولم يدرك أحد بأنه شك ولا بأنه لم يعمل ، ولم ينتفع عقل الإنسان بما كان

أعيفهم فاهم من هذا أننا نقول ، إن العمل على خطأ خير من الشك على صواب ؟

كلا ! . ليس هذا ما نقوله ، وليس هذا ما نحن مصطرون إلى قوله بصرورة من الضرورات .

وإنما نقول

إن الشك إذن هو الخطأ ، وإن برهان حطته نفساني يقام له وزنه كما يقام الوزن للتحليل العلمي والقضايا المنطقية ، وإنما الخطأ أن نحوج الطويلة إلى الدخول في المعمل لتثبت لك قدرها ، وتثبت لك حقها في الإعجاب ، وحقها في العمل ، وحقها في تحويل تاريخ الإنسان ثم تثبت لك قدرتها عليه !

ليس المعمل محل هذا .

محل هذا نفس الإنسان .

وساءت الدنيا إن كانت نفس الإنسان لا تغنيه في تقويم النفوس ، ولا سيما أعظم النفوس .

أفلا يروعن البطل إلا حلال الأنايب والأنايب ؟

أفلا تملكني نخوة الإعجاب إلا بوثيقة من إيساغوجي ؟

أفيروقي الطائر المطلق فأعلم لم يروقي ، ويسراي لي الروح العظيم فأقول مكانك حتى أرجع إلى مائده التشرريح أو إلى قاروره الكيمياء ١٩

ما قال ذلك قائل قط أمام روح عظيم

والسبب وأصبح مستقيم ..

السبب أن الروح العظيم كان قبل أن تكون مائدة تشرريح وقارورة كيمياء ، وأن الإنسانية ألهمت خيراً ألا تؤجل الإعجاب بكل روح عظيم إلى أن يظهر المشرحون والمحللون

ليظهروا « عبي مهلهم » ولتأخذ العظمة الروحية حقها من الإعجاب قبل إذنهم ، فلا صاقضة بلعلم ولا للمنطق في ذلك

إنما المواقفة أن يعلق دوافع النفوس وبواعث الفطرة على شيء لا تتعلق به ولا تتوقف عليه ، ولا نخطئ الواقع ثم نخطئ الواقع الصالح ولا سند لنا أوثق من الواقع على كل حال ، ولا شفاعة أكرم من شفاعة الواقع الصالح في كل مال .



أيقولون إن البداهة قد تخطئ في الإعجاب ؟

قد تخطئ ولا جدال . .

ولكن كذلك يخطئ العقل ، وكذلك تخطئ التجربة ، وكذلك تخطئ العلوم وتمسك في حطتها مثاث السنين . ولم يقل أحد أن قولها للحطأ ينفي قبولها للصواب ، ولا نسي أحد أنها إذا أخطأت مرة فلها امتحان من العواقب يأبى على الخطأ أن يدوم .

على أن تمحيص القضايا المنطقية أو العلمية شيء وتمحيص الشرائع النفسية شيء آخر ورعا كانت وسائل «الصدق أقل من وسائل المحللين والمشرحين في العصر الحاضر في باب القضايا المنطقية أو العلمية أما في باب الشرائع النفسية فوسائله ليست بأقل من وسائلهم بحال ، وقدرته على أن يحس من حوله عظمة النفس الإنسانية ليست بأقل من قدرة أحد من المحللين والمشرحين

وهو قد قال . هذه نفس عظيمة لا شك في عظمتها ، فالخير في متبعتها ، إن لم يكن بد من افتراق الطريق بينها وبين أعدائها .

وهو فيما قال قد أصاب .

أصاب منطقاً وأصاب علماً وأصاب حساً وأصاب بكل مقياس من مقياس الصواب .

هو فيما قال أصوب من يخالفه رأياً ، ولو استند إلى كل حجة من حجج التحليل والتشريح

وماديه فيما انتهى إليه هو إعجابه بالبطولة .

وهو إعجابه بالبطولة التي تستحق الإعجاب ، لأن الإعجاب طبقات تتفاوت ، كما أن البطولة نفسها طبقات تتفاوت . وقد كان هو من طبقات هذا الإعجاب في أرفع مكان . .

لأنه لم يعجب بسطل تروجه منه سطوة العُتاة المتجسرين ، ولم يعجب بسطل تروجه منه مظاهر الزخرف والخيلاء ، ولم يعجب بسطل تروجه منه جليلة النصيت

الفارغ والمواكب الجوفاء ، ولم يعجب ببطل يردى بالوفر والثروة أو بالعُصبة  
أولى القوة .

لا لم يكن شيء من هذا هو الذي راعه من بطولة محمد ﷺ ، لأن محمدًا  
ﷺ لم يكن ذا سطوة ، بل كان عرصة للأدى من السلطين عليه ، ولم يكن من  
أصحاب الزخرف والخيلاء بل كان أعداؤه هم أصحاب الزخرف والخيلاء . ولم  
يكن وراءه أحد يتبعه ولا معه مال يصل به من يصل إليه ، بل كان وحيدًا بطرده  
الأكثرون ، فقيرًا يعيه الميسرون ، وأولهم أول صديقيه والمقبلين عليه

إن البطولة التي أعجب بها أبو بكر هي البطولة التي ليس أشرف منها بطولة  
تعرفها النفس الإنسانية : هي بطولة الحق ، وبطولة الخير ، وبطولة الاستقامة ،  
وهي بعد هذا ، وفوق هذا ، بطولة الفداء - يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما  
سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء .

تلك هي بطولة محمد

وذلك هو إعجاب الصديق . خير لنى آدم أن يبقى لهم هذا الإعجاب من أن  
يزول ويبقى بعده كل شيء ، وأى شيء !

\*\*\*

ولقد أجدى ذلك الخلق الكريم أكر جدواه لأنه تهيأ له بسليقته ونشأته  
وتوشج تركيبه عليه .

فظهر منه إيمان القلب ، وروية الفكر ، وفي سياسته العامة ، وفي سياسته  
الخاصة ، وما تشتمل عليه من أدب سلوك وعلاقة بالناس

أحاط به أناس من المشركين يتهمون به ساحرين عابثين : هل لك إلى  
صاحبك ؟ إنه يزعم أنه أُسْرِيَ به اللينة إلى بيت المقدس !

وكان أناس قد ارتدوا بعد إسلام لما سمعوا بحديث الإسراء ولم يتبينوه فأما  
أبو بكر فما زاد على أن قال أو قد قال ذلك ؟ شن قال ذلك لقد صدق !

فعاظهم منه أنهم لم يبلغوا منه موقع التشكيك فيما أرى عندهم على حدود التصديق ، وعادوا يسألونه : أتصدق أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح ؟

قال : نعم ! إنى لأصدق أنه هو أعد من ذلك من خبر السماء في غدوة أو روحة . ثم ذهب إلى النبي ﷺ فطلق يسمع منه ويصدق ويقول : أشهد أنك لرسول الله .

وهذا هو البرهان النفساني كما دعونا ، وهو برهان لا حل فيه من وجهته التي يستقيم عليها ، وإن لم يكن هو البرهان الذي تعود المناطق والعلماء .

وها موضع صالح للفرقة بين هذه البراهين في ظواهرها ، وللتوفيق بينها فيما تنتهي إليه من تشدان الحقيقة الكبرى :

إنى لأصدق فيما هو أعد من ذلك من خبر السماء .

ومحوى ذلك :

إنى لأصدق أنه أهل للتصديق .

هذا هو أساس الإقناع في منطق الإعجاب والإيمان ، فإن كان للمنطق أو للتحرية العلمية أساس آخر ، فليس معنى ذلك أن الأساسين متناقضان متداربان ، وإنما معناه أنهما يحوان محتلفان .

ولكن إن مرضنا مع هذا ، أنهما قد تناقضا وتداربا فليس لخطأ إحداهما في جانب الصديق ، ولكنه على التحقيق في جانب العالم أو المنطيق .

إن قال العالم أو المنطيق : إنى لا أصدق حديث الإسراء ولهذا أبطل الدعوة الإسلامية وأبطل قلبها العظمة المحمدية ، فهو المحض في برهانه وهو الذي تعدى به حدود قياسه .

لأنه نظر إلى المسألة في صير جانبها الذي يُنظر إليه ، من حيث كان أبو بكر على صواب كل الصواب في نظرته إليها من جانبها الأوفى ، أو جانبها الذي هو ماسط التأييد والإنكار .

أبو بكر يأخذ النفس العظيمة مأخذاً واحداً ويصدق الخمر فيها جملة واحدة ولا يحزنها قطعة قطعة وخمراً خبيراً ، فيطبخها كلها بخمر من أخسارها وجزء من أجزائها .

وأبو بكر ينظر إلى المسألة في أساسها فيطمئن إليها عند ذلك الأساس ويبني عليه كل ما فوقه من الإصافات والارادات ، والمسألة في أساسها ها هي مسألة الصلاح والفساد ، ومسألة التوحيد وعبادة الأصنام .

ومسألة المقابلة بين الأخلاق الجاهلية والأخلاق التي تأمر بها الدعوة المحمدية ، ومسألة الثقة بالمقاصد العظيمة والمساعى الكريمة . أو الثقة بالجهل الشائع والعادات الذميمة .

فإذا كان أبو بكر قد نظر إلى هذا الأساس فهو المصيب .

وإذا كان العالم هو والمطبق لم ينظرا إليه فهما اعطشان ، وهم المقيمان لقياس على غير أساس قوي يد كان حليقاً بهما أن ينظرا إليه ولا يغفلا عنه وهو أولى بالتقديم ولاعتسار ، سواء أخذناه بالإحساس والإيمان ، أو بالتجربة وبالتفكير .

تُرى لو مثل العالم والمنطيق والصادق أمام عرش « الحق » السرمد بعد ذلك اليوم بعشر سنين فسألهم فأجابوه كل على ما أجملنا أمفاً ، فأبهم كن يحفظه وأبهم كان يرضيه ؟

يمش العالم أو المنطيق بين يدي الحق فيسأله :

ماذا سمعت قبل عشر سنين ؟

فيقول سمعت من رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت المقدس فلم أظفر منه ببرهان

فيسأله .

فماذا صنعت بعد ذلك ؟

فيقول :

كذّته وصدقت المشركين ، ثم نقضت الدعوة الإسلامية وبقيت حتى اليوم على سنة الجاهلية .

فما يختلف اثنان إذن في الجواب الذي يلقاه ذلك العالم أو ذلك المطبق ، ليقولن لحق له إذن : إنك أخطأت وخالفت العلم وانطق فيما صنعت لأن تلك المقدمة لا تنتهي بك إلى تلك النتيجة ، وحديث الإصرار على أى معنى فهمته لن يجعل النفس العظيمة لعوا ، ولن يجعل عملها العظيم مستحقاً للإبطال ويمثل الصديق ببر يَدَى لحق فيسأله : ماذا صنعت قبل عشر سنين ؟ فيقول :

سمعت من رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت المقدس فلم أشك فيما رآه فيسأله :

ولم لم يخامرْك الشك فيه ؟ فيقول :

لأنى صدقته في أمر السماء فما يكون لى أن أكذّبه فيما دون ذلك فيسأله :

فلم صدقته في أمر السماء ؟ فيقول :

لأنى أعتقد فيه الخير ولا أعتقد فيه السوء ، ولأنى أعتقد السوء في منكربه ولا أعتقد فيه الخير .

ليقولن لحق له إذن : إنك أصبت وتأديت إلى التصديق من طريق صالح للتصديق ، ووافقت المنطق والعلم أخيراً وإن لم تأت معهما في الطريق ، وإن هذه السنين العشر لتشهد لك بصدق الوعى ولا تشهد به لمن حالفوك - أخذت في المنطق والعلم بالنتيجة ولم تنال بالمقدمة ، وأخذ المخالفون إياك بالمقدمة ولم يالوا بالنتيجة . فأنت في سبيلك أهدى وأنت إلى المنطق والعلم أقرب وأدنى .

أفیفهم فاهم من هذا أننا ندين بقول القائلين

## إن النجاح هو برهان الصلاح ؟

كلا ! ليس هذا ما ندين به ، وليس هذا بالذى يقتضيه ما قدمناه ، وكل ما هنالك أننا نقرر حقيقة لا شك فيها حين نقول : إن أبا بكر كان أهم للعظمة الحمدية من أنكروها لأنهم شكروا في حديث الإسراء . وإن المنطق والعلم لا يقضيان بمحاربة الدعوة الحمدية كائنًا ما كان فهم العاهمين لحديث الإسراء .  
فإن قال قائل :

إن المنطق والعلم يقضيان بذلك فهو يظلم المنطق والعلم فيما ادعاه عليهما بغير برهان ؛ وهو الذى يحالف البرهان النفسانى فى أن

ولا حاجة بنا هنا إلى إلقاء البراهين العلمية أو البراهين المنطقية ، وإنما حاجتنا كلها ألا تلغى البراهين النفسانية ؛ لأنها قد تتناول العوائق الإنسانية فى عمومها فيطوى فيها العلم والمنطق معًا ، وتأتى الأيام بعد ذلك بتفصيل هذا الإجمال وتوصيح هذا الإبهام

يقول قائل : وما مرجعنا فى البراهين النفسانية ؟ أنصدق كل من يدعيها ؟ أتأخذ بها حيثما رأيناها ؟ أدين بالإعجاب حيثما هتف هاتف بإعجاب ؟ فأقرب ما عندنا من جواب أن عظمة النفوس مستحقة للإعجاب كما يستحقه جمال الوجوه

فماذا عسانا قائلين لمن يسألنا : وما مرجعنا فى جمال الوجوه ؟ ... ولا حاجة هنا إلى مرجع ، ولا فائدة فى المرجع إن وحدناه .

فجمال الوجوه لا يتوقف على مرجعه الذى سهب أو بوجر فى توصيحه ... وعظمة النفوس من باب أولى قائمة فى الدنيا بمرير مرجعها الذى يسوقها إليه ، ولا خوف عليها من قلة المراجع عندنا ، فهي تأتى حين تأتى بأياتها وبراهينها ، وحيثما ظهرت عظمة مُعجزة طهر لها صديقون معجبون ، وأقبل عليها مقبلون وأعرض عنها معرضون ، ولن يفعها المرجع شيئًا إن لم يكن فيها ما يعجبها عنه . وقد كان فى وسعنا أن نجترئ بهذا ولا نريد عليه ولكننا نود أن نستريح

بالعقل إلى سند ما أمكنت أن تريحه . فغاية ما ستريح بالعقل إليه في هذا الصدد مأخوذ من كلام الصديق نفسه رحمه الله . وذلك إذ يقول :

« إن خير الخصلتين لك أبعصهما إليك » . فالدعوة التي تزين لنا ما مستقيم إليه ليست بدعوة عظيم ، والدعوة التي ترفعنا فوق أنفسنا وتنهض بنا إلى ما يشق علينا هي الدعوة العظيمة في أصدق مقاييسها ، وهي التي تفرحنا بالواحب ولا تفرحنا بالهوى ، وحسبها ذلك « رهداً نفسانياً » لا نهتدى إلى حير منه ، فكل ما عظم بنا فقد كلفنا ما يشق علينا ، ونشغل بنا إلى طور فوق طورنا ، فإن كنا على استعداد لهذا الانتقال عالت إليه نفوسنا كما يعيل الجسم إلى النمو وإن كان نموه ليكلفه عتاً عند الولادة ، وعتاً عند التمسيس ، وعتاً عند المراهقة ، وعتاً عند بلوغه سن الرشد والاستقلال . وإن لم يكن على استعداد كرهناه وحسنا الراحة في كراهته ، وهي في الحقيقة داء يمنع النماء .

مرجع « البرهان النفساني » الصادق في تقدير العظمة أنه سبيل الفداء في طريق النماء ، وكل ما تركنا كما نحن أو تحذر بنا دون ما نحن فيه فبينه وبين العظمة حجاب ، وليس له من ضمائر النفس برهان

بهذا البرهان النفساني واجه أبو بكر مسألة الدعوة المحمدية من حيث تسنى مواجهتها ، ونظر إليها من جانبها الأصيل الذي تنحصر فيه النظرة الأولى : أمحمد إمام خالق بالإنساع ؟ أمو يطل حدير بالإعجاب ؟ إن كان كذلك فهو متعجب به متعجب إياه ، وإن لم يكنه فلا إعجاب ولا اتباع . . . وكل ما وراء ذلك فصول وانحراف عن الجانب الأصيل .

ومحمد يطل حدير بإعجابه ، إمام حقيق باتساعه ، فامتلاً به إعجاباً ولازمة اتباعاً ، وعرف طريق الخير من ساءة الأمر أنه أشق الطريقين ، وعوده كرم التحيزة من قبل أن المجد تكليف وجهه ، وأن الحق صبر وجهه . فكانت سؤته فيهما أن يحمل المعارم وأن يأخذ بيد المهيف ، وأن يجور على نفسه وفاء بحق غيره ، فلم تطرقه الدعوة الإسلامية من باب غريب ، ولم يصادفه الجهاد للدين على غير تأهب وتدريب ، بل زاده يقيناً من طبعه وأستواء على بهجه ، وجعله في صدر

هذه الدعوة مثل الإعجاب والإيمان ، وأبرزه للأجيال عنواناً « للشخصية » التي يبلغ بها الولاء للبطولة ذروة مجدها وغاية ثمها ، ويستخرج منها كوامن قواها وأحاسن مزاياها ، ويستفيم بها عنى سوائها ، ويرتقى بها إلى سمائها ، فهو أبو بكر فى تصديقه وولائه عسى أحسن ما يكون وهو هو الصديق .

برهانه فى تصديق العيب كبرهانه فى تصديق الشهادة لأن المرجع فيه إلى شخص القائل لا إلى الشيء الذى يقال .

فلما ارتد بعض المسلمين من حيث الإسراء بالنسب إلى بيت المقدس قال أبو بكر قوله تلك :

إنى أمت به هى أمر السماء علم لا أومن به فيما دون ذلك ؟

ولما تشاور المسلمون فى صلح الحديبية رضى من رضى وأبى من أبى ، وطهرها مطلقاً متقابلاً منطلقاً عمر بن الخطاب يقول إسا على الحق فلم يعطى الذنبه ؟ ومنطق أبى بكر يقول :

إنى أشهد أنه رسول الله فسم لا أتبعه فيما ارتضاه ؟

ولما اختلف المختلفون فى بعثة أسامة كان أمام أبى بكر خطط متعددة يختار منها ما يشاء منها أن يحتفظ بالجيش لحراسة المدينة ، وأن يحتفظ به لحرب أهل الردة ، وأن يبعث به إلى العراق ترصداً للفرس المذيرين بالإعارة ، وأن يبعث به حيث أراد رسول الله ، وإن قال بعض القائلين

إن الحال قد تبدل ، وإن انقضاء يؤذن بالمراجعة فيما أراد فشاء أبو بكر الخطه التى شاءها محمد ، وأبى أن يأذن فيها بمراجعة أو تبديل

ولما جاءوا بالأعطية يقسمونها كانت التفرقة بين الأقدار أدنى إلى التصرف ، وكانت النسوية بين الأقدار أدنى إلى الاتباع وكان عمر يقول .

أعطى من حارب الرسول كما أعطى من حارب مع الرسول ؟ وكان أبو بكر



يقول . أنوَجِهرهم على إيمانهم فمعطيهم بمقدار ذلك الإيمان ؟ فكان عمر عوان  
التصرف وكان أبو بكر عثوان الاقتداء

ومن أصالة الإعجاب بالبطولة فيه أنه كان مثلاً في أدب الملازمة وقدوة في  
أصول المصاحبة ، وكان مقطرته حيراً بالمراسم التي سميها اليوم « بالهروتوكول »  
لأن أدبه في توفير العطمة أدب الطبع الذي يهتدي من نفسه بدليل

انظر إليه وهو يستأدد أسامة في استبقاء عمر بن الخطاب !

انظر إليه وهو يأبى إلا أن يركب أسامة وهو يشيعه سائراً على قدميه !

انظر إليه وهو يبادي بنته عائشة : يا أم المؤمنين !

هو في كل أولئك المعجب المؤدب بأدب المصاحبة الخبير بمراسم المعاملة ،  
الذي ينرى بوحى نفسه كيف يكون التعظيم وكيف يكون السلوك ، وكيف  
تصان حقوق المراتب والدرجات

قيل :

إنه كان إذا قدم على الرسول وهود القبائل علمهم كيف يُسلمون وكيف  
يتكلمون بين يديه ~~المنهم~~ .

وكان ~~المنهم~~ يوماً في المسجد قد أطاف به أصحابه إذ أنبل على بن أبي طالب  
فوقف فسلم ثم نظر مجلساً . والتفت ~~المنهم~~ يرى أنهم يوسع له ، وكان أبو بكر  
على يمينه فأسرع فتزحزح عن مجلسه وهو يقول . ها هنا يا أبا الحسن ! فهذا  
السرور في وجه النبي ، وقال :

« يا أبا بكر . إنما يعرف الفضيل لأهل الفصل دور الفصل » .

وكأنما خلق أميناً لمر ، فما تعوزه صفة واحدة من صفات الأتناء للعظماء  
الذين يعجبون بهم ويغارون عليهم . ومنها هذا الأدب ، ومنها قلة الكلام ، ومنها  
الكتمان عنهم في خاصة شئونهم ، وكان أبو بكر في كتمانهم عن النبي يتصدى  
للملام ولا يبرح بكلام .

تأيت حمصة بنت عمر فعرضها على عثمان ، ثم على أبي بكر ، ثم خطبها  
النبي ﷺ

قال عمر « فقال عثمان ' سأنظر في أمري ، فليث ليالي ثم لقيسي فقال ' قد  
بدالي ألا أتزوج يومى هذا ولم يرجع إلى أبو بكر شيئاً ، فكنت أوجد عليه  
منى على عثمان ، فليث ليالي ثم خطبها رسول الله ﷺ فأتكحتها إياه  
فلقيني أبو بكر فقال لقد وجدت على حين عرضت على حمصة فلم أرجع  
إليك شيئاً ؟ قلت ' نعم ! قال لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت على إلا  
أسي كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله  
ولو تركها رسول الله قسيتها » .

فهو في هذا الكتمان قد جرى على خير سمة يجرى عليها أسماء الأسرار !  
أشفق أن يذيع سر الرسول ﷺ فيبدوله في العلول ، فتكون في تلك ملامه ،  
فأثر هو أن يلام على أن يُعرض صاحبه للام .

ومع هذا الكتمان وهذا الكلام الزر كانت له حبرة بكياسة القول هي القدوة  
العليا لمن جيلوا على مخاطبة العظماء .

فسأل رجلاً يحمل ثوباً ، أتبعه ؟

بأجابه :

لا عافاك الله

قال :

هلا قلت وعافاك الله !!

تلك نفس ملكتها شمائل الوقار والتوقير ، وامتزجت بها سليقة الإعجاب  
والتعظيم ، حتى فاضت على جوارحها ، وسرت مرتجلة إلى جميع حالاتها ،  
فهى هنالك تستشفها في بواطن الضمير وتلمسها فيما ظهر من الأعمال  
والمعاملات ، وتتلقاها من خلجات الذهن وبوادر اللسان ، وهى هنالك مفتاح

الشخصية كلها تنفذ بنا إلى خفائها ، وتفتح لنا ما استعلق من أسرارها ، وتميز لنا بين حصائصها وخصائص الأنفس التي تناطرها في المقام ، وتحالفها في المزاج والتركيب .

لقد كان عمر بن الخطاب معجباً بمحمد غاية إعجابه محباً له غاية محبته ولكن « الإعجاب بالبطوة » كان صفة من صفاته ولم يكن صفة الأولى التي تعلب على جميع الصفات ، وحديثه الشاملة التي تنطوي فيها جميع الخلائق . فإذا قضى حق الإعجاب بقيت له بقية للمناقشة والمراجعة ، واستطاع أن يجمع بين التوقير والاستفسار والتفسير ، فكانت له طريق إلى الإيمان تصاحب طريق الإعجاب وتنتهي معها إلى مثل نهايتها آخر المطاف .

أما أبو بكر فقد كان الإعجاب أقرب طرفه إلى الإيمان ، وأكسرها على السراء وهما بعد هذا وذلك ملتقيان .

فإذا كان عمر ثاني المتصرفين بعد نبيه وأستاذه وهاديه ، فأبو بكر أول المقتدين بغير سابق ، وبغير نظير .

وهما بعد قرينان يتقابلان في كل حركة من حركات التاريخ ، وكل ظاهرة من ظواهر الأمم ، ولا سيما في إثبات الدعوات .



## نموذجان

النموذجان المتقابلان في الملكات والأخلاق ظاهرة معهودة في كل أمة ، ولا سيما خلال النهضة التي ترر فيها كوامن الملكات وتمنح فيها حقائق الأخلاق .

وعهد التاريخ بها في شئون الصمير كعهده بها في شئون المعرفة والحكمة ، أو في شئون السياسة والتشريع ، أو في كل شأن له أثر يبيّن في أعمال الناس .

فاصطلح النقاد على تسمية هذين النموذجين في المعرفة والحكمة بالنموذج الأفلاطوني نسبة إلى أفلاطون ، والنموذج الأرسطي نسبة إلى أرسططاليس . أو النموذج الذي يتمثل في النظريات ويتعلق بما وراء الطبيعة ، والنموذج الذي يتمثل في التجربة والمشاهدة ويتعلق بالطبيعة وظواهرها المحسوسة .

وفي الأدب والفن يوجد المثاليون عشاق الفن الأعلى ، والواقعيون طلاب الواقع الذين يأخذون الدنيا كما هي ويصنعون الفن على ما هم عليه

وفي السياسة محافظون ومجددون ، وفي التشريع حرقيون ومعنويون ، وفي العقيدة أرفقه العقيدة مقتدون ومحتهدون ، وفي ميول الناس ومشاربهم عاطفيون وعقليون ، وأصحاب أثر أو أصحاب إشار .

وليس المقصود بالنموذجين المتقابلين هنا تقابل الصدين اللذين يتناقضان كما يتناقض الصواب والخطأ ، والخير والشر ، والعلم والجهل ، والهدى والضلال

ولكن المقصود هو التقابل الذي يتمم فريقاً برأيا فريق ، ويعين قوة نافعة بقوة أخرى تكافئها ، ويزدوج في عناصر الأمة كما يزدوج الحماحان اللذان يسقل بهما الطائر ، ولا يستقل بفرد جناح .

هذان النموذجان معهودان ، لارمان .

معهودان على الخصوص حيثما نهضت أمة من الأمم بجميع قواها وجميع مراياها ، وجميع ما فيها من عدد الأهبة والخطة وبواعث لإقدام والإحجام

ولازمان فى النهضات على الخصوص حيثما تقدمت النهضة بى طريقها واحتجب عنها إمامها وهادىها ، وأصبح لزأماً بعده أن تتقبل القوى ، وتتعاون الجهود .

ومن تمام الدعوة المحمدية أنها كشفت هذه النماذج المتقابلة فى الأمة العربية بين عشية وصباحها ، فإذا الأمة العربية كلها كأنما هى حشد مستعد بكل عدة ، متزود بكل زاد

ظهر فيها أقطاب الشجاعة وأقطاب الدهاء ، وظهر فيها المقدمون والمتحدرون ، وظهر فيها الخياليون والعمليون ، وظهر فيها كل طرف وما يقابله من طرف يواريه ويستند إليه .

وبين هذه النماذج كلها نموذجان من الطراز الأول ، يوشك أن يجتمع فيهما كل ما تفرق فى غيرهما من الملكات والشعائل والميول .

نموذجان كبيران تعيب فى أطوائهما جميع النماذج الصغار .

وهما نموذج الصديق ونموذج الماروق .

بين هذه الرجلين العظيمين تقابل كثير الشعب متعدد الأنحاء : تقابل يستهى إلى التجارب والإخاء ولا يستهى إلى التدافع والنمار ، لأنهما كانا يحومان معاً فى نطاق كوكب واحد ، أو نظام كوكبى واحد كما تحوم السيارات والأقمار حول شمس واحدة هى لها جميعاً مركز أصيل لا تفصل عنه .

وربما دخل فى وجوه التقابل بين هذين الرجلين العظيمين أكثر ما أجملاء من الفوارق التى تختلف بها نماذج الناس . العقل والعاطفة ، والحفاظة والتجديد ، والواقع والمثل الأعلى ، وما لا يحصى من الألوان والشيآت ، والأطراف والحدود

ولكنها على تعددها واختلافها فوارق متناسبة متوافقة تقبل التلخيص فى فارق واحد يطويها فى معظم بواحيها ، وهو الفارق بين نموذج الاقتداء ونموذج الاجتهاد .

كان أبو بكر نموذج الاقتداء فى صدر الإسلام غير مدافع

وكان عمر هي تلك الفترة نموذج لاجتهاد دون مرء .

وكلاهما كان بحب السى ويطمعه وبحرص على سنته ويعجب به غاية ما  
هى وسعه من إعجاب .

ولكنهما فى ذلك طريقان يتوازيان ، وإن كانا لا يتناقضان ولا يتحدان .

وإن بينهما فى ذلك لفرقاً لطيف المأخذ عسير التمييز ، يحاول الإيضاح عنه  
جاهدين ، ورجو أن يُبرزه بأوهى ما يستطيع له من إبراز ، ونحسب أننا موفقون  
حين نقول إن تقديم وصف على موصوف يكفى فى الإمامة عن هذا الفرق  
الدهيق الذى لا ينفصح حتى يتسع لأكثر من هذا التفريق .

فأبو بكر كان يعجب بمحمد النبى .

وعمر كان يعجب بالنسب محمد .

وتريد القول إيضاحاً فنقول : إن حبّ أبى بكر لشخص محمد هو الذى هداه  
إلى الإيمان بنبوته وتصديق وجه .

وإن اقتناع عمر بنبوته محمد هو الذى هداه إلى حبه والولاء له والحرص على  
سنته ، وعلى رضاه .

ولهذا كان أبو بكر صاحباً آمن بصاحبه الذى يطمئن إليه ويحمد حصاله ،  
وكان عمر عدواً رده الاقتناع إلى مودة الرجل الذى كان ينكره ويعاديه .

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمداً فيفهم القرآن ، وكان عمر يأخذ بالقرآن أو بما  
يفهم من مشيئة الله فيما فاش محمداً حتى يثوب إلى الفهم الصحيح .

هما قريبان جدّ قريبين

ولكنهما ليسا بشيء واحد على كل ما بينهما من اقتراب .

أو هما كما قلنا فى ختام الفصل السابق : أبو بكر أول «المقتدين» ، وعمر ثانى  
المجتهدين ، وبذلك يتكافأان ولا نقول يتفاضلان .

نعم يتكافأان ويتعادلان ، وهذا الذى نريد أن نؤكد ونجتنب فيه سوء الفهم  
والتمسير .

فليست المقابلة بين هذين الرجلين العظميين مقابلة بين قوة وضعف وقدرة وعجز عن قدرة .

كلا . هذا أبعد ما يحظر على نال أحد يدرك مضائل الرجلين العظميين ويعرف ما لكل منهما من خلق مكين وعمل جليل .  
فإن الضعف «سلى» لا يُجنس منه عمل عظيم .

وصلاة أبى بكر فى حرب الردة لم تكن صلابة «سلبية» تقول «لا» فى موضع «نعم» ولا تزيد .

ولكنها كانت صلاة تشوب إلى قوة لاشك فيها ، قوة مصدرها الاقتداء . هذا لا يهم فى وصفه بالقوة وإبعادها من صفة الضعف والعجز عن القدرة . وإنما المهم أنها قوة فعالة ، وأنها قوة عظيمة لا وراء .

ليست المقابلة إذن بين هذين الرجلين مقابلة بين قوة وضعف ، وقدرة وعجز عن القدرة .

ولكنها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر ، وكلتاها فعالة ، وكلتاها ذات أثر فى الإسلام ، وفى العالم ، جليل .

وليس من الضرورى اللزم أن يكون كل مقتد أقل فى الشأن والأثر من كل مجتهد برأيه ، فقد يكون من المقتدين من هو أكبر وأقدر من المجتهدين ، وقد يكون الاقتداء وكله خير ، ويكون الاجتهاد ولا خير فيه . ولعلنا نوضح هذه الحقيقة بالمثل المحسوس ، لأنه أقرب إلى المشاهدة والإقناع

فالمصابيح الكهربائية منها ما هو أم مستقل بمفتاح ، ومنها ما هو تابع موصول بمفتاح غيره .

ويتفق مع هذا أن يكون «المصباح الأم» أصغر حجماً وأضعف بوراً من المصباح الذى يتبع غيره ويصوى بمفتاحه ، وهما أقرب مثل محسوس للاجتهاد والاقتداء .

كذلك الكوكب الثابت والسيارات التى تدور حول غيرها . لا يلزم أن يكون كل كوكب ثابت أصغر من كل سيار دائر ، وإن تكرر هذا فى العيان وسبق إلى الأذهان



وعلى هذا النحو كان الفرق بين الصديق والفاروق ، بين أول المقتدين وثانى المجتهدين فهو بين قوة من نوع ، وقوة من نوع آخر ، ولامحل للضعف فى المواجهة بين هاتين القوتين .

\*\*\*

وهناك مقابلة أخرى بين الصديق والفاروق لاقصوتنا الإشارة إليها لأنها مقابلة أصيلة فيما تؤول إليه من الصفات والآثار .

ونعنى بها للمقابلة بينهما فى تكوين البنية وتركيب المراح ، وهى أيضاً مثل عجيب من أمثلة التقابل بين هذين الرجلين العظميين .  
فكان أبو بكر غودح القوة فى الرجل الدقيق .

وكان عمر غودح القوة فى الرجل الجسيم

ومن عجيب المصادفات أن هذا كان غزير الشعر بين العراة فيه ، وهذا كان أصلع ، بين النراة فيه ، ليتم بينهما الثقابل حتى فى الصفة التى لا يقتضيها اختلاف البنية بين الرجل الدقيق والرجل الجسيم

قلنا فى كتابنا عبقرية عمر «إن العالم الإيطالى لومبروزو ومدرسته التى تأتى برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تحطها على صورة من الصور فى أحد من أهلها وهى علامات تتفق وتتناقض ولكنها فى جميع حالاتها وصورها غط من اختلاف التركيب ومبايسته لتوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة فيكون العبقرى طويلاً نائناً الطول ، أو قصيراً بين القصر ، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكليتا اليدين ، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود فى سائر الناس ، ويكثر بين العبقيريين من كل طراز جيشان الشعر وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارئ فيكون فيهم من تُفرط سورتة كما يكون فيهم من يصرط هدوءه ، ولهم على الجملة ولع بعالم العيب وخفايا الأسرار على نحو يُلحظ تارة ، فى الزكاة<sup>(١)</sup> والفراصة ، وتارة فى النظر على البعد أو الشعور على البعد ، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله .

تلك جملة الخصائص العبقرية التى أجمالناها من كلام لومبروزو وأشياعه ، فكأنما

(١) الزكاة العطنة والمهم

شاء القدر أن يتفق الصاحبان في جوهر العقيدة ويختلف في أعراضها اختلاف  
انقابلة ، حتى في عزارة الشعر ونزارة على غير ما يقتضيه هذا الاختلاف

والمقابلة بين الصديق والعاروق في تكوين البنية وتركيب المراجع كان لها أثر  
كبير في انقابلة بين الرجلين العظيمين في الخلائق والجهود ، فعمر ، بما نشأ عليه  
من الجسامه والهيبة ، لم ينشأ وله منه من البنية ينهه أبداً إلى وجوب التهذئة  
والترويض ، فمضى بتلك البنية كما يمضي راكب الفرس الجموح غير متوجس  
من جماحه ، لأنه مطمئن آخر الأمر إلى العنان .

وأبو بكر . بما نشأ عليه من الدقة والحول ، قد نشأ وله منه إلى غوثل الحدة  
التي تعهد من أصحاب هذا التركيب ولا تؤمن غوائلهم عليهم ، فراض نفسه  
على التهذئة والترويض ، ومضى بتلك البنية كما يمضي راكب الفرس الجموح  
عودها قبل الدحول في المضمار أن تدع الجماع ، وأن تشمر بالعنان القابض عليها  
في كل حين .

وهنا لا تكود التفرقة أيضاً من قسيل التفرقة بين القوة والضعف ، وبين القدرة  
والعجز عنها ، ولكنها على ما قدمنا تفرقة بين قوة وقوة تكافئها ، أو بين طرازين  
من القدرة يتقابلان .

فلو كان أبو بكر ضعيفاً قليلاً لجمحت به الحدة ، ولم يعتصم من عزمه إلى  
كايح قدير على الكبح ، فتحطم كما يتحطم الضعفاء .

ولو كان شعوره بنفسه شعور ضعيف وقه لاستقر على هذا الشعور واستكان  
إليه ، ولم يأخذ نفسه بالسمت والوقار ، ولا بمناقب السيادة والمروءة ، ورضى له  
ولذويه بما يرضى به الضعفاء .

ولكنه شعر من نفسه بقوة يعتصم بها ويقوى على رياضتها ، فكان مثلاً  
للقدرة الرائعة والنفس المروضة كما تكون في الرجل الدقيق لمحيل .



في حياة الصاحبين موقف من المواقف النادرة التي يظهر فيها الرجل كله ،  
ولا ينفق في التجارب النفسية أن يواجهها الإنسان مرتين في حياته ، وهو  
الموقف الذي فاجأهما بموت النبي عليه السلام .

ليس للصاحبين غير صديق واحد بمنزلة محمد عندهما من المحبة والتجلة ،  
وهما لا يروغان كل يوم نساء فاجع يسوءهما كما يسوءهما بها موته وانقضاه  
عشرته والأنس بقربه . فالموقف نادر ، والبليّة به حليقة أن تبتلى الرجل في كل  
ما ينطوى عليه من بديهة وروية . .

وابتلى به عمر فعضب غضبه الموهوبة وثار بالثعاه يتوعددهم ليعطعن أيدي  
رجال وأرجلهم يزعمون أن محمداً قد مات .

غضب غضبة الرجل المملوء بقوته وحميته ، الذي لم يسيبه منه قط إلى  
ترويض غضبه والمبالاة بعواقب ثوراته ، وكأنما قام في دخيلة نفسه أنه يستكثر  
حتى على الموت أن يجترئ على الصديق الذي يحبه ذلك الحب ، ويجله تلك  
التجلة ، ويعتقد فيه تلك العقيدة ، ويستظر حتى من الموت أن يتحامى جانب  
ذلك الصديق ، ويرعى له حرمة لا يرهاها لسائر الأحياء

وأبو بكر يحب محمداً كم يحبه عمر ، ويأسى لفراقه كما يأسى ، ويرفعه  
مثله درجات فوق مقام الأحياء من قبله ومن بعده ، ولكنه رجل راض نفسه  
وتمتع حدة طبعه ، وعرض الصبر على ما ليس يدفعه دافع ولا تعى فيه حيلة ،  
فإن كان تسليم فهذا أحق المواقف بالتسليم وأولاهها بطول ما ارتاض عليه من  
صبر ، وما تأهب له من أسوة .

بذلك أدى كل من الرجلين صريية طبعه ومزاجه الذي لا معادى له عن  
مطاولته والاستحابة لدواعيه

ثم زالت الغاشية الأولى . فظهر الرجلان في حالة القرار كما طهرا في حالة  
المفاجأة . ظهر أن عمر لم يكن ثورة كله ، بل كانت فيه إلى جانب الثورة روية تفرغ  
للأمر في أوجع أوقانه ، وظهر أن أبا بكر لم يكن روية كله ، بل كانت فيه إلى  
جانب الروية مطاوعة لسليفة الحب والألفة قد تشعله عن العواقب إلى حين

فبينما هو مشتعل بتجهيز رسول الله إذا بالأصهار يجتمعون في سقيفة بني  
ساعدة ليتحدو لهم أميراً دون إخوانهم من المهاجرين ، وإذا عمر يتأهب للأمر

أهنته ، ويعاجل الخطب قبل استمع حاله ، ويأخذ أبا بكر من بيت رسول الله إلى سقيفة بني ساعدة ليبياعه هناك بالخلافة . ويتقى الحدة من أبي بكر فيهيئ في نفسه كلاماً يصلح لذلك المقام يهد به بكلامه . وهي بعض الروايات أنه فكر في أمر المبايعة قبل ذلك حين لم يعكر فيها أحد من المهاجرين ، وأنه شاور أناساً وشاوروه فيما يكون بعد وفاة رسول الله . فما كانت غضبته الشائنة إلا ريثما قضى على العنان بكلماته ، ثم كان عساه ذلك أطوع عان

كلا الرجلين العظيمين فيه روية وفيه حدة . تأتي الرواية أولاً أو تأتي الحدة أولاً ذلك هو موضع الفارق من بوادير المراج والتركيب ، ولكن الرواية هناك قائمة في المزاجين حين تراد .



وقد لمس هذه الجوانب المتقابلة من مزاج الصاحبين في كل مسألة ذهبها فيها مذهبين ونزعا فيها إلى رأيين مختلفين

من ذلك مسألة الردة ، ومسألة خالد بن الوليد ، ومسألة الأعطية والتوافل للمؤلفة قلوبهم ولغيرهم من عامة المسلمين .

في كل مسألة من هذه المسائل كان كل من الصاحبين عند طبعه ومزاجه ، أو عند المعهود من وصفه واستقصاء أحواله ، دليل أصدق دليل على خلوص الرأي وصراحة الضمير والتوجه إلى الأمر بما يستدعيه عندهم من مقدماته وموجباته ، في غير حيد ولا انحراف عن سواء السبيل .

ففي مسألة الردة جنح أبو بكر إلى الصرامة وجنح عمر إلى الهوانة ، وفي طاهر الأمر أن هذا اختلاف على غير المنظور من طبيعة الرجيين ولكن الواقع أنه لا يخالف المعهود إذا مصينا فيه إلى ما وراء الظاهر القريب .

فقد كان أبو بكر عند طبعه حين أبي أن يترك عقالا بما كان يأخذه رسول الله من فريضة الركاة ، وكان كذلك عند طبعه حين استشاره الاستخفاف به والجرأة عليه ، كأنهم يستصغرونه ويتقحمونه ، وهو الذي توقّر طول حياته من مكانة من

يُستصغر ويتفهم ، لدقة في تكوينه وقوة في نفسه تعاف أن تُحسب عليه الدقة في التكوين صغراً في المقام .

وقد كان عمر عند صبعه حين أخذ بالنصرف والاجتهاد على حسب اختلاف الأحوال ، ووثق من مصير الأمور إلى الخير بأية حال

\*\*\*

أم مسألة خالده بن الوليد فقد كان السؤال فيها هل يحاسب أو لا يحاسب؟ فكان جواب الصالحين على حسب المعهود فيهما من مزاج وحقيقة ، ولم يكن منظوراً أن يفضى أحد منهما بغير ما قصاه .

قتل خالد مالك بن نيرة ونسي بامرأته في ميدان القتال على غير ما تألفه العرب في جاهلية وإسلام ، وعلى غير ما يألفه المسلمون وتأمر به الشريعة .

أم يحاسب على هذا أو لا يحاسب عليه ؟

أول جواب يندر إلى عمر عن هذا السؤال هو إحاسية بغير ولاء ولم لا ؟ ما الذي يُتقى ؟ ما الذي يكون ؟ إن اللبالة بعقبى حسابه ليست مما يروع عمر ويشيه ، بل لعلها مما يحفزها إلى التحدى والإصرار فيه .

أما أبو بكر فقد استشار هنا طبيعة الاقتداء ، وطبيعة الإعجاب بالبطولة وطبيعة اللين والإعفاء ، وهي تشير عليه بالإعفاء من الحساب أو بالإمهال به إلى حين

فهو لا يعزل قائداً من فواد رسول الله وسيفاً من سيوفه ، وهو لا ينسى بطولة خالد وإن زل أو أخطأ التأويل ، كما قال ، وهو يؤثر اللين لأنه في عامة أحواله مطبوع عليه ما لم يمسه الأمر فيما يثير .

\*\*\*

وجاءت مسألة الأعطية فأبى أبو بكر أن يتصرف في تمييز الأقدار وأقدم عمر على التصرف والاجتهاد

وجاءت مسألة المؤلفنة قلوبهم فأعطاهم أبو بكر متبعًا سابقة الرسول وأتكر  
عمر عطاهم لأنهم كانوا يأخذون ما أخذوه والإسلام ضعيف . .  
فأما الآن فماذا عساهم أن يصنعوا إن لم يأخذوا؟ ما يصنعونه كائنًا ما كان  
لا يكره ولا يشبه .



وهكذا نستقصى علل الخلاف بين الصاحبين في كل مسألة من المسائل فإذا  
هى فى مردها خلاف بين قرنين من بوعين ، أو خلاف فى تناول الأمور على  
صريفتين ، ولم تكن فط حلافًا بين قوة وضعف ، أو بين حرص وتعميط ، أو بين  
أثرة وإشثار .

ومن المسلم أن القوة ضروب ، وأن العظمة صنوف ، وأن اللين لا يلين أبدًا  
والشديد لا يشتد أبدًا ، فلاند من اختلاف بين العظيم والعظيم ، ولابد من  
اختلاف بين عمل العظيم الواحد فى أوقات ، وليس العجب أن يجرى كل  
منهم على خطئه وأسلوبه ، وإنما العجب أن تتعدد ضروب القوة وتتعدد صنوف  
العظمة ثم تتوحد الحطة والأسلوب

وموضع العبرة - بل موضع الإعجاز فيما تقدم - هو تلك الدعوة التى شملت هذه  
القوة كلها فى طية واحدة ، وصمت هؤلاء الرجال جميعًا حول رجل واحد ،  
وجذبت إليها أكرم العناصر التى تأتى بالمعاطم وتصلح للخير وتقدم على الفداء .

فأوجز ما يقال فى تلك الدعوة أنها حاظت خير ما فى الإنسان فلبأها أمثال  
الصديق والفراروق ، وأقبل عليها الأقوياء مخلصون من كل طرد فليست هى  
بالدعوة التى تحاطب الضعف والصعفة ، ولا بالدعوة التى تخاطب الطمع  
والأثرة ، ولا بالدعوة التى قوامها الترهيب والترعيب ، ولكنها الدعوة التى يجيبها  
أكرم سامعيها ، ويتخلف عنها أقلهم سعيًا إلى الخير واقتدارًا عليه

والصديق والفراروق خير منادى الرجال فى الحرية العربية ، فى حالاتهم هذين  
العظيمين دليل على السر الذى من أحله لدى محمد قومه ومن أحله أجيب ،

ومن قال من المكابرين والمتعنتين إن دعوة محمد لم تكن بالدعوة الصالحة  
فليقل : أى صلاح كان يلقى في الجزيرة العربية مجيبين أكرم وأقدر من هؤلاء  
المجيبين؟ وأى هداية بين الناس أشرف من الهداية التي تجمع إليها أقوى الأقوياء  
وأطيب الطيبين ، على ما بينهم من تقابل في المزج والرأى كأعجب ما يكون  
التقابل بين المختلفين المتفاوتين؟ وأى إقناع أقنع الصديق؟ وأى إقناع أقنع  
الفاروق؟ الخشية؟ المتعة؟ الشر؟ الطمع؟ لقد كان إذن آخر من يجيب ، وكان  
خصوصهما إذن أسرع المجيبين وأسبق المؤمنين!





## إسلامه

قيل إن أبا بكر رضي الله عنه كان أول من أسلم ، واتممت الأقوال على أنه كان أول من أسلم من الرجال ، وأن السيدة خديجة رضى الله عنها كانت أول من أسلم من النساء ، وكان علي رضي الله عنه أول من أسلم من الصبيان ، وكان زيد بن حارثة أول المسلمين من الموالى ، وهو الذى تباه النبى عليه السلام .

وقال النبى عليه السلام : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت منه عنده كسوة ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبى بكر ، ما عكم<sup>(١)</sup> عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه » ، فلم سهل إسلام الصديق هذه السهولة التى لم تؤثر عن أحد غيره كما جاء فى ذلك الحديث الشريف ؟

لعلنا نختصر الطريق إلى جواب هذا السؤال إذا نحن سألنا عن الموانع دون الإسلام ، قبل أن نسأل عن الموجبات . .

لأنك إذا بحثنا عن العقبات فلم نجدها ، أو بحثنا عنها فوجدناها قليلة العدد هيئة التدليل ، بدت لنا سهولة الطريق من غير جهد كبير فى البحث عن الموجبات ، وعرفنا أنه « لا مانع » فعرفنا أنه لا صعوبة ولا محل للتردد وانقاومة فما الذى كان يمنع أبا بكر أن يجيب دعوة الإسلام ؟

بل ما الذى يمنع إنساناً من الناس - كائناً من كان - أن يجيب الدعوة إلى عقيدة جديدة ؟

### موانع شتى

ومن الحقائق الملحوظة أن هذه الموانع كانت أقل ما تكون فى أبى بكر الصديق ، فلا يعرف أحداً فى عصر النبى كانت موانعه دون إجابة الدعوة الجديدة أقل من موانع هذا الرجل الصادق المصدق ، المستعد لإجابة النبى إلى هدايته كأنما كان معه على ميعاد

يجمع الإنسان أن يصعب إلى دعوة العقائد الجديدة موانع شتى من أفات العقل

(١) عكم عنه تأخر

والخلق والبيئة ، تجتمع وتتفرق ، ويُبتلى الرجل الواحد بها جميعاً ، وقد يستلج  
بمناج واحد منها فيحول بيته وبين الإصغاء والإجابة .

يحميه أن يحجب الدعوة إلى المصلحين عطرسة ، أو سيادة مهددة ، أو مصلحة  
فى بقاء القديم ومحاربة الجديد ، أو ذهن مغلق لا يفتح للفهم والتفكير ،  
أو معامسة للشهوات تحجب إليه أن يستنم إلى العرف الذى يبيحها ويعرف عن  
الهداية التى تحظرها وتقف فى سبيلها ، أو تعصب عصبوب للعقيدة التى درج  
عليها ، أو شعور بقوة سلطان تلك العقيدة فى أبناء قومه ، سواء منهم انتصون  
لها والقابلون بها على الحجارة والمداراة ، أو حين ينهائ أن يحرج على المألوف  
ويتصدى لسخط الساخطين وإن تبين طريق الاستقامة والسداد ، أو إيعال فى  
الشحوخة بصد الإنسان عن كل تغيير وميل به إلى كل نواكل ومتاع وتقليد ،  
أو حداثة من تجعله تابعاً لغيره فى الرأى والخلق وتجعل له شرة تحجبه عن  
النزوة والمراجعة ، أو دلة مطبوعة تلحقه بمن أدله ويسط سلطانه عليه .

فالمطرسة حلة نأى على صاحبها أن يستمع إلى قول أو يصيح إلى دعوة .  
أو يتنزل إلى متابعة إنسان ، ترفعاً عن الإصغاء قبل أن يهديه الإصغاء إلى  
موافقة أو إنكار .

والسيادة المهددة توحى إلى صاحبه كراهة التحديد ، لأنه يحس بالمداهة أن  
صاحب الحديد أولى منه بالسيادة إن شاع ما حدده بين الناس ، فتبطل سيادته  
ببطلان القديم الذى فامت عليه ، وقيام الجديد الذى نسحه وعفاه .

والمصلحة هى حلة من الحالات المستقرة تجعل الرجل محباً لتلك الحالة حبه  
للمصلحة ، كارهاً لتبديلها كراهته للحسارة ، ميالاً إلى محاربة الدعوة الجديدة قبل  
أن يبحث فيها ويتعرف وحوه الخير الذى قد يصيبه منها .

والدهن المعلق يجهل ما يقال ، ويعادى ما يجهل ، ويفر من كل ما يشق عليه ،  
وأول ما يشق عليه أن يفهم شيئ على وجهه السوى ، أو يتها للفهم بأية حال .

ومعامسة الشهوات تُبغض إلى المرء سلوانها والإقلاع عنها ، وتقرن عنده  
دعوات الإصلاح والاستقامة بشؤم التعمص والتكدير ، فيتبرم بها ويرجع لها ،  
كما يزعج النائم المستغرق أينظته من بومة لدينة قد استراح إليها

والتعصب الغصوب لما اعتقده المرء يثبته أن تمس عقيدته كما يشور لحماية  
الخورة أو الذود عن الآباء والأجداد ، لأنه يحسب عقيدته ملكاً له ولا ياله يرد  
عنها من يهجم عليها ، كما يرد صاحب البيت من يهجم عليه .

والعقيدة إذا كانت قوية السلطان غلبت عزتها على عزة العقل والفؤاد ، فأصر  
عليها من كان خليقاً أن يعانها ويعرب عيبها لو دعى إلى تركها وهي تتداعى  
وتتزعزع وتؤذن بالزوال

والجس يخيف صاحبه أن يجهر بالحق ويستعد به عن طريق الخفاة ، فلا يدنو  
إلى الصوت الذى عسى أن يقوده إلى الإصغاء فالإيمان فالجهر بما يصير .

والشيخوخة عدو لكل طارق ، والحدائث بين طيش يدعو إلى التمرد وطاعة  
تدعو إلى متاعمة الأولياء ، والنزلة حجاب بين الذليل ونفسه يحججه وراء من  
أذله ، فلا تصل إليه الدعوة إلا من تلك الطريق

هذه مواقع الإصغاء إلى كل دعاء حديد .

أو هذه أعم المواقع التى تحول بين معظم لأسماع والإصغاء إلى ذلك الدعاء .  
ومن الحقائق الملحوظة - كما أسدنا - أن أبا بكر كان براء منها جميعاً ،  
أو كان كأبرأ الناس منها فى عهد الدعوة الحمذية .

فلم يكن متفطرساً ، بل كان مشهوراً بالدعة والتواضع ، مألفا لقومه كما قال  
واصفوه «محباً سهلاً .» وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ،  
لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته .

ولم يكن مهتداً فى سيادة مصرورية على أعناق الناس ، فكان من دوى  
الشرب فى قريش ، ولكنه لم يكن من فائلها الساطية التى تستطيل بالبعى  
والطفيان ، كان من «تيم» وهى بيت فرشى معدود ، ولكنه لم يمنع أبا سفيان أن  
يقول كما قال لعلى بن أبى طالب يستثيره حين بويع أبو بكر بالخلافة : «ما بال  
هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها؟» ولم تكن «تيم» أذل قبيلة فى قريش  
كما قال أبو سفيان ، ولكنها على أية حال لم تكن بمقام السطوة والسيادة التى  
تطمس الصماثر والألپاب .

ولم تكن لأبى بكر مصلحة فى دوام الجاهلية ، لأن عمه فيها كان صمام المعارم والدييات ، وربما كان هذا العمل أدنى إلى الخسارة منه إلى المصلحة والعيشة ، فلا راحة ولا أسف عليه . أما التجارة فلا خوف عليها من الدعوة الجديفة ، وصاحبها الداعى إليها تاجر يبيعها ويراولها ويحضر عليها .

ولم يكن معلق الدهن ولا وصَّفه أحد بهذه الصفة من محبيه أو شائتيه ، بل كن معروف الذكاء يلمح الدخن البعيد فيذكره ويسبق الحاضرين إلى نهمة والفتنة لموضع الإشارة فيه ، كما حدث غير مرة والنبي عليه السلام يتحدث أو يعط الناس .

ولم يكن مغامساً للشهوات ، بل كان يكره ما شاع منها بين الجاهليين من دوى الأقدار والأخطار ، فلم يشرب الخمر ولم يركب الدنس ولم يشتهر قط بوصمة نعيمه بها من أسرعوا إلى معاقته يوم هجر عقيلة الجاهلية وجنح إلى عقيلة الإسلام .

ولم تكن حياة الأرائان عقيلة مكينة السلطان فى عهد الدعوة المحمدية ، بل كان أناس يهتمونها وأناس يبحثون عن غيرها ، وأناس يؤثرون عليها للمسيحية واليهودية ، فلا يصابون بمكروه فى أكثر ما سمعنا من أخبار أولئك المتسمحين أو المتهودين .

وعلى هذا لم يكن أبو بكر متعصبا للجاهلية وعباداتها ، بل لعله كان مزدريا لها مستحفاً بالأصنام وبأحلام عابديها ، وإذا صح ما جاء فى «أنباء نجباء الأبناء» فهو لم يسجد لصنم قط ؛ وقال : لما ناهزت الحلم أخذ أبو حنيفة بيدي فاطلق بى إلى مخدع فيه الأصنام فقال : هذه آلهتك الشم العوالى ، وخلانى وذهب ، فدنوت من الصنم وقلت : إنى جائع فأطعمنى ! فلم يحبنى . فقلت : إنى عار فأكسنى ! فلم يحبنى فألقيت عليه صخرة فحر لوجهه .

ولم يكن الصديق بالجبان . ولا بالشجاع الذى نصيبه من الشجاعة قليل ، بل كانت شجاعته تفوق شجاعة الأبطال المعبودين فى الجاهلية والإسلام فشئت مع البى فى كل وقعة حين ولّى من ولّى وأبطأ من أبطأ ، وعامر بحياته فى حروب الردة وله مدوحة عن خصوصها ، ولم يذكر فى أخباره قط خبر نُكول أو خوف على حياة ومال

ولم يكن شيعيًا فانيًا متابعًا لكل قديم ، ولا حدثًا صغيرًا تطيش به شرة الشباب حين دعاه محمد إلى ديه وهداه ، بل كان رجلًا ناضجًا في بسطة الرجولة ، يفقه الأمور ويعتدل بين الصبا الساكر والكهولة المولية ، ويرن القول بفهم نافذ وحكم صادق ، وعقل راجح يعرف الترجيح

\*\*\*

تلك جملة الموانع التي تحول بين الإنسان وقبول الدعوات الجديدة إلى الإصلاح ، وكلها لها غاية عسى الأقل إن لم نقل أن جانب الدواعي في مكانها أوضح من جانب الموانع ، ومعنى ذلك أن الصديق لم تكن بينه وبين الإسلام عقبت تصده عن وروده ، وأن طريقه إليه كانت مهدة مفتوحة يحطو فيها خطوته الأولى فلا يلبث أن يتسعا بخطوات .

على أن الأمر لم يقتصر على قلة الموانع في طريق الصديق إلى الإسلام . فقد كانت هناك الدواعي التي أشرنا إليها في مكان تلك الموانع ، وكانت للصديق خلاق عاملة تقربه من العقائد القويمة ، وتجعله عن يستمعون القول فيتهبون أحسنه ، ولا حاجة به إلى أكثر من ذلك ليغرق بين سنن الجاهلية وسنن الإسلام ، ويميز بين ما هو حقيق بالترك والإعراض ، وما هو حقيق بالحرص عليه والإيفاض<sup>(١)</sup> إليه .

كان الرجل صادق الطبع مستقيم الصميم ، لا يلتوى به ، عما يعلم أنه الحق ، عوج ولا سوء دخلة ، وغرف باسم الصديق إذ عرف الناس فيه الصديق من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالإسلام ، لأنه كان يصمن العارم والديات فيصدفونه ويعتمدون على وعده ويوكنون إلى وفائه ، وقيل . إنه سمي بالصديق لتصديقه النسي في كل ما أنبأه به من المعقبات والبشائر ولكنهم لم يحتفلوا في تصديق صمائه والاعتماد على وعده ، وإن احتفلوا في سبب التسمية وفي ميقانها من الجاهلية أو الإسلام .

ومن كان على هذا الصدق في الخليفة فلا حجاز بينه وبين دعوة إصلاح ، وليس من شأنه أن يصمم أدنيه عن قول صادق ودعاء مستقيم ولا أن يعادي الحق ويلج في عدائه ، شيشة المكبرين المستكبرين .

(١) الإيفاض الإسراع

وكان مطبوعاً على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصالح ، يطلب العقيدة ويطلب المعتقدين بها واهتدين إليها . يبدو ذلك من إسراره إلى التبشير بالإسلام ساعة أن اهتدى إليه ، فدخل في الدين على يديه نعمة من أسقى الصحابة وأخلصهم للنبي عليه السلام وأعظمهم أثراً بعد ذلك في قيام الدولة الإسلامية ، كعثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله ، وجعل لا يهدأ ولا يستريح حتى أدخل في دينه أمه وأباه وذويه .

وتبدو حماسته لاعتقاده من إلحاحه على النبي أن يظهر بالمسلمين في نواحي المسجد وهم دون الأربعين عدداً ، ومن قيامه بينهم خطيباً يجهر بالدعوة إلى الله ، والمشركون متربصون ثائرون ، حتى أصابه من ذلك أذى شديد خيف عليه الموت منه ، وتركه المشركون وهم لا يشكون في أنه مات أو أنه مائت عما قريب . وتبدو هذه الحماسة من اتخاذه مسجداً لصلاته وتلاوته على قارعة الطريق ، يسمعه حين يقرأ كل عابر ، ويشوعله المشركون فلا يفرج من وعيد . ولما جاءه الرجل الذي أجاره من المشركين على أن يكتنم إسلامه فخير بين الكتمان أو رجوع الذمة إليه ، لم يتردد في رد دمه وقال له : فإني أرد إليك جوارك ، وأرصى بجوار الله عز وجل .

ورجل مطبوع على سماع الحق وتصديقه والدعوة إليه والحماسة له غير عجيب أن يسرع إلى العقيدة الجديدة هذا الإسراع .

والى هذا كان قريباً من السليقة الدينية التي تتراءى في مكاشفة العيب واستطلاع الرؤى والهوائف وافتتاح النفس لإشارات الإيحاء والاستيحاء ، ويروى عنه أنه رأى قبل البعثة وهو بالشام رؤيا تُنبئ بقرب ظهور النبوة في البلاد العربية ، ويُعرف عنه على التحقيق أنه كان يعبر الرؤيا بين يدي النبي عليه السلام ويستأذنه في تفسيرها ويحتفل هو بما يراه في منامه .

والى هذه القربى من الإيمان بالعيب كان لطيف الحس حاشع النفس عظيم الرفق والمودة ، لا تترن على قلبه تلك الغلظة التي تعلق أبواب القلوب وإن تفتحت الأدهان ، فكان خشوعه يكيه وفرحه يكيه ، وسبقته الدينية كاملة لا يعوزها إلا القبس الذي يلمسها ، فتصم ثم لا ينطق لها صبا

وكان مع الصدق وحماسة العقيدة ومقاربة العيب ومروحياته وبحاواه بليغاً متذوقاً لسلاعة ، كثير الرواية للشعر والاسترواح للكلام الحسن الفصيح ، فكان في «زبدائه» لكلام المتنبيين غضب تلمح فيه عيفان<sup>(١)</sup> الدوق البليغ كما تلمح فيه عيفان المؤمن الناقم على الصلال ، سمع فقرات من قرآن مسيلمة الكذاب فما عثم أن ابتدر قارئيه مشمئزاً من سخفه وإسفه : «ويحكم إن هذا لم يخرج من إل<sup>(٢)</sup> ولا يراه» .

ولا جرم يكون هذا الذوق المستقيم سبباً قريباً بين صاحبه وبلاغة القرآن وبلاغة النبي عليه السلام

إلا أن سبب الأسباب جميعاً في التقريب بين الصديق وبين الدعوة المحمدية هو ذلك السبب العال على كل ما ذكرناه ، لأنه يمزج بأطواء نفسه ويصبغها بصبغته ويحوي بها أبداً في منحاه ، ونعني به الإعجاب بالبطولة ، ذلك الإعجاب الذي نحسبه ملاكاً لأخلاقه ومفتاحاً لشخصيته كما فصلناه في غير هذا الباب .

فالرجل المعجب بالبطونة يعرف بطله ، ثم يشق به ، ثم يرتقى بالثقة إلى ما فوقها وما هو أمكن منها ، لأن الثقة استناد إلى وثيقة تدعو إليها على حسب ما فيها من بيناتها وبراهينها ، أما الإعجاب فهو الرعدة في الثقة وكراهة التحول عنها ، هو البحث عن الثقة والتدادها إذا وقف الوثائق عند الانتظار أو محرد التأمين والموافقة بعد الانتظار .

وقد تواترت أسماء مختلفة بصداقة أبي بكر للنبي عليه السلام قبل الدعوة المحمدية بسنين ، وذكر المؤرخون الثقات أنه كان معه عليه السلام حين ذهب في صحبة عمه إلى الشام واجتمع بالراهب بحيرا وسمع منه ما سمع عن الدين والبشارة بالنسوة وقد شك بعض المؤرخين من الأوروبيين في اتصال المؤدة بين الصفيين قبل الدعوة المحمدية بزمان طويل ، إلا أن الدليل الذي يغني عن وثائق التاريخ أن أبا بكر كان باتفاق الأقول أول المستجيبين لدعوة محمد من غير

(١) عيفان : النور والكراهية

(٢) إل : العهد والحلف .

أهله ، ولن يكون ذلك بغير معرفة سابقة بين الرجلين حببت إلى النبی علیه السلام أن يبدأ به ويترقب منه الإصغاء إليه ، وأيسر ما يستلزمه ذلك السبق إلى الإسلام أن يكون أبو بكر معروفا بصفاته لمحمد وأن يكون محمد معروفاً بصفاته لأبي بكر . فلما سمع دعوته سارع إلى تصديقه وهو معجب به وباستقامة طبيعه ونقاء سيرته وبلاغة حديثه ، وأعانته على التفرقة بينه وبين خصومه ، والتميز بينه وبين منكريه أنه كان نسابة قريش لا يموتة مغمز من مغامرهم قدمها وحديثها في الأساب والأخلاق ، ومحمد عنده مطهر من كل ذلك براء .



من جملة ما تقدم تبين لنا سهولة انجاء الصديق إلى الدعوة المحمدية ، سواء من صعب العقبات في طريقه أو من قوة الدواعي التي تجذبه إليه ، فقد اجتمعت هذه وتلك على تفسير تلك الأعجوبة الباهرة في تاريخ الدعوات الجديدة : أعجوبة رجل في سميت الرجولة يقال له ' تعال إلى دين جديد غير دين آبائك وأجدادك ، فلا يتواصى ولا يتردد في إجابة الدعوة ، وما هو إلا أن يسمعها حتى يليها وينقطع لها ، ويصح من أقوى دعائها بعد صاحبها

ومن تمام الجلاء في تفسير تلك الأعجوبة أن نفهمها على حقيقتها في جميع أحوالها وملاساتها ، وأن نفهم الفارق بينها وبين بطايرها لو جرت في عصرنا الحاضر ، أو بيئة أخرى غير البيئة التي جرت فيها .

فنحن نسمع بقصة أبي بكر وتصديقه السريع للدعوة المحمدية فنحصر في أخلادنا رجلاً من المسلمين أو النسيحيين أو الإسرائيليين في عصرنا الحاضر يقال له ' تعال إلى دين غير دينك ودين آبائك وأجدادك فيجيب الداعي لتوّه وساعته كأنها تحية وجوابها .

وهي أعجوبة عندما يوشك أن يأبأها العقل وأن تمتنع على التصديق ولكن إسلام أبي بكر لم يكن من هذا القبيل ، ولم يكن الدين الذي تحول عنه كالدين الذي يؤمن به المسلم في هذه الأيام .

لم يكن دين المشركين من قريش ديناً من أديان الروح وعقيدة من عقائد الضمير



لم يكن له شأن بالحياة الصالحة ولا بالحياة الباقية ولا بالنظر إلى الكون في أسرار خلقه ولا بالجماعة الإنسانية في قوام أمرها ومسايطر الخير والشر فيها والصالح والفساد بين رجالها ونسائها .

ولم يكن التابعون له ينظرون إليه هذه النظرة أو ينظرون هذه النظرة إلى دين آخر أو عقيدة أخرى

ولكنهم كانوا ينظرون إلى عقائدهم نظرتهم إلى الموروثات للأفوفة والعرف المنفق عليه ، أو نظرتهم إلى العادات التي ترتبط بها مصالح العيش ومصالح السيادة والحد ، وكان يعر عليهم أن يقال لهم إن أباؤهم وأجدادهم هالكون ، وإن الدين الذي بشأوا عليه وماتوا دين سحيف ومهانة وصلال فكانوا في ثورتهم على الدعوة لجديده أشبه الناس بأبناء القرى والمدن الذين ينشرون على رحل يستدع في الولائم والأفراح والخناير بدعة محالف للكلوف ويهدد مصالح الوجهاء أو ما يسمونه « شرف الأسره » وسير البلدة وعادات الناس ، ويهدد مع تهديدها الوجهاء مصالح العاصمين في شئون الرواج وشعائر الوفاة ، وما إلى ذلك من الرسوم والعادات .

وكان المشركون لا يبالون أن يخرج على دينهم من يخرج عليه دجياً بروحه خالٍ بنفسه بينه وبين ربه ، فعاش بينهم اليهود والمسيحيون والمتهودون والمتنصرون وهم في دعة وأمان إلا من أدى لأقارب المخالفين لهم في قبيل من الأحيان ، وإنما كانوا يشيرون على الدعوة العامة التي تدل العرف كله ، وتخرج الجماعة من مألوفاتها وقواعدها التي استقرت عليها ، فكان الثائرون في وجه الدعوة للمحمدية من مشركي قريش بين رحل من ثلاثة لا يعدوهم إلى رابع رجل صاحب سيادة تتصل سيادته بقاء الأمور على ما هي عليه ، ورجل من الأذئاب الذين لا يعقلون ولا يحسون الظلم والفساد ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به السادة المسيطرون ، ورجل لم يصغ إلى الدعوة الجديدة حق الإصغاء ، ولم يتسع له الوقت للتفرقة بينها وبين العرف القديم .

ومع عدا هؤلاء جميعاً فهو قريب من الدعوة المحمدية لا يجمعه ما يع أن يتجه إليها متى أصاب الوجهة التي تهديه في طريقه ، وليس معنى ذلك أن التعلب

على العرف الجاهلي كان من الهيات الهيئات أو كان أهون من التغلب على سائر العقائد والأديان ، فليس أصعب ولا أعضل هي الحقيقة من التغلب على عرف ترتبط به مصالح السيادة وعبادة الدهماء وتراث الأجداد والآباء ، وإنما معناه أن الأمر لا يعم جميع المشركين ما لم يكن واحداً من أولئك الثلاثة ، وهم ألوف وألوف .

وأبو بكر رضي الله عنه لم يكن واحداً من هؤلاء .

وكان مع هذا رجلاً يحس بالروح والصميم ، ويحس الخواء الذي تتركه العقائد الجاهلية في حياة الروح والصميم .

وقد عافاه الله من سبب قوى من أسباب الثورة على الدعوة المحمدية بين المشركين المعتزين بالآباء والأمهات ..

« أأسي على صلال ؟ أأسي مع الهالكات ؟ » .. تلك حاضرة كانت تهجر في نفس المشرك من قريش فيعصب ويشور ويحسب الدعوة الجديدة في عداد السباب الموجه إلى أقرب الناس وأعزهم عليه .

أما أبو بكر فقد عافاه الله من ذلك في إبان الدعوة المحمدية ، لأنها صهرت وأبوه وأمه بقاء الحياة مفتوح لهما باب النجاة ، مما زال بهما حتى دخلوا معه في دينه ، واطمأنت نفسه على أبيه وأمه وبنيه .

وفيما عدا هذا قيل له : دع هذه البقايا الماسدة وأقبل ومن تحب على دين جديد فيه الخير والصلاح والهداية إلى خالق الأرض والسما ،

فلم لا يترك تلك البقايا الماسدة ؟ ولم لا يقبل على الدين الجديد ؟

إنه لا يحب بقايا الجاهلية ، ولا يربطه بها شئ ولا كبرياء ولا ذلة ولا عباء ، وإنه ليمهم ويعقل ويحب الخير والصلاح ويحس في قلبه حيثبان الروح والصميم ، وإن الذي يدعو له لكرم حلیم صادق قوم حسب إلى النفس مراً من العيب يحق له أن يجاب ، وإنه لا يخاف لأنه شجاع ، ولا يقابل الأمر بفتور المستخف لأنه رجل حي العفود مطبوع على الحماسة لما يؤمن به والإعجاب من يستحق عنده الإعجاب .

فالعجب أن يُدعى إلى تلك الدعوة فلا يجيبها أسرع ما يكون الجواب ، وليس العجب أن يسرع إلى إجابتها كما أسرع فأجاب .

وهكذا يبين لنا في إسلام أبي بكر كما بان لنا في إسلام كل رجل دى بال من السابقين إلى الدعوة المحمدية أنها دعتهم إليها بأسبابها المعقولة فاستجابوا إليها بأسبابهم المعقولة التى توائم كلاً منهم أصدق الموعظة ، ولا تحوج أحداً من المعلنين والمفسرين إلى الخوارق المكذوبة ، أو إلى تفسير الأمر بالوعد والوعيد ورغبة الجنة ورهبة السيف .

وكما قلنا فى كتابنا « عبقرية محمد » إن الأقوياء لم يُسلموا خوفاً لأنهم أقوياء ، وإن الضعفاء لم يُسلموا خوفاً لأن الإسلام عرصهم للقتل والعذاب والسيوف المشركين الذين لهم عليهم سيادة وطعيان ، « وما كفر الدين كفروا المرهد ولا شجاعة فيقال : إن الذين مسقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشعف بلذات الحمة وجبن عن مواجهة القوة ، ولكنهم اختلفوا حيث تُطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور . فمن كان أقرب إلى هذه الطلبة من غنى أو فقير ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم . ومن كان به زيغ عنها فقد أبى ، وهذا هو الفصيل القائم بين الصريقين قبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه ، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف ، وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان فى جانب الله والخوف ، ويضع الطاعة من قريش فى جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون له هوى كهوى الكفار . . »



كان الصديق إذن أول رجل من شرفاء العرب دان بالإسلام بعد نبيه <sup>الطاهر</sup> دان به سريعاً إلى دعوته لتلك الأسباب التى تليق به وتليق بالدعوة المحمدية ، وكسب له فى اللحظة الأولى أن يكون ثانى اثنين حين يكون النبى هو أول الاثنين فكان ثانى اثنين فى الإسلام ، وثانى اثنين فى غار الهجرة ، وثانى اثنين فى الطلعة التى أوى إليها النبى يوم بدر الذى لا يوم مثله ، وثانى اثنين فى كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب إلى النبى فى شدة الإسلام ورحائه ، وفى سره وجهه ، وفى شئون نفسه وشئون المسلمين .

ومن اللحظة الأولى وهب للإسلام كل ما يملك إنسان أن يهب من نفسه وآله وبيته . فأخذ أمه إلى النبي لتسلم على يديه وهي بين الحياة والموت ، وجاءه نأبيه بعد فتح مكة ليسلم على يديه وقد جلّله الشيب رابيض رأسه كأنه ثُعامة<sup>(١)</sup> ، وحمل ماله كله وهو يهاجر في صحبة السبي يؤثر به الدين على الآل والبيتين

والرويات في توجيه الدعوة إليه مختلفات منها ما يؤخذ منه أن النبي ﷺ وجه الدعوة إليه خاصة فساها ، ومنها ما يؤخذ منه أنه ﷺ قصد الناس في المسجد بالدعوة العامة فاتصل نبؤها نأبي بكر فحاده يسأله :

يا أبا القاسم ! ما الذي بلغني عنك ؟

فسأله النبي : وما بدعك عنى يا أبا بكر ؟

قال . بلغنى أنك تدعو إلى توحيد الله ، ورعمت أنك رسول الله .

قال . نعم يا أبا بكر . إن ربى جعلنى بشيراً ونبياً ، وجعلنى دعوة إبراهيم ، وأرسلنى إلى الناس جميعاً .

فما أنطأ أبو بكر أن قال : والله ما جربت عليك كذباً وإنك لخلق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمك ، وحسن فعالك مذكرك فإنى مهابتك

والصدق والأمانة وصلته الرحم وحسن المعال صفات يفهمها أبو بكر لأنه يحبها ويتصف بها ويحب أهلها فهو صادق أمين رحيم حسن الفعال ، وتلك أقرب الآيات إلى لبّ وقلبه ، وهى أولى الآيات بالتصديق عند الصادقين المصدقين ، فمن الجائز أن تحدهما الخوارق وليس من الجائز أن يحددهما من يصدق ويرى وبؤدى الأمانة ، ويستقيم على سوء الطريق فى فعالة وحصالة

وأصبح الإسلام منذ تلك اللحظة ديباً عند أبى بكر يقابل الدنيا بما وسعت من خيرات وطيبات . أصبح عنده غنيمة يفتديها بكل غنيمة يضمن بها المرء من حياة أو آل أو ذرية ومال ، ولو قاسه بمقياس دينا . لقد كان الإسلام بلبّة عليه لا يطلبها عقل ، ولكنه قاسه بمقياس دين فعمم أنه أريج الربحين وأرشد الراشدين . طلبه ديباً وكفى . فصبر فيه على ما يجزع منه طالب الدنيا ، وبأى أن يستهدف له أو يشارفه من بعيد

(١) الثعامة بيت جبلى ورقه كورق الزمجيل ، إذا بيس شبه الشيب به

كان المسلمون دون الأربعين يوم أشار على النسي أن يجتمعوا في المسجد ويجهروا بالدعاء . فلما وقف بينهم في المسجد يدعو إلى الله ورسوله وثب عليهم المشركون يضربونهم ويؤذنونهم ويوسعونهم إهانة مع الصرب والإيداء ، وتصدى عتبة بن أبي ربيعة لأبي بكر فجعل يصربه بتعيين مخصوفين حتى ورم وجهه ، وحفى على الناظر إليه مكان أنفه . وتسامع أهله من بنى تيم فأقبلوا يتعادون ويحلون المشركين عنه . ثم حملوه في ثوب إلى بيته وما يشكون في موته وصاح منهم صائحون في المسجد والله لئن مات أبو بكر لنقتن عتبة

ثم أحاطوا به يكلمونه حتى أفاق وأحاب ، فكان أول ما فاه به وهو في تلك الحال : ما فعل رسول الله ؟

ولاموه وعنفوه ، وسألوا أمه أن تطعمه أو تسقيه شيئاً يرد إليه نفسه فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يعلم ما فعل رسول الله

قالت . والله ما أعلم بصاحبك .

قال : فادهبي إلى بنت الخطاب فاسأليها عنه .

فلما جاءتها أنكرتها وأشعقت أن تكون عينا من عيون المشركين عليها وعلى رسول الله . فقالت ' ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ' ثم عرضت عليها أن تذهب إلى أبي بكر لتسمع منه وتطمئن إلى مقاله . فوجدته صريحا دافعا قد رُج به الألم ، فعلبها الإشفاق فأعلنت بالصياح وهي تقول . إن قومنا بالوا منك لأهل فسق . وإنى لأرجو أن يستقم الله لك .

فما زاد على أن كرر سؤاله الذي لزمه مد أفاق من غشيته ' ما فعل رسول الله ؟

قالت وهي لا تزال حذرة من أمه هذه أمك سمع !

قال : لا عين عليك منها .

قالت : سالم صالح !

فلم يكفه ذلك حتى يراه بعينه ، وسألها أئى هو ؟ فأعلمته بمكانه من دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وأحب أن يذهب إليه ، وكأنه أحسن من أمه مانعة في

خروجه وهو بتلك الحال ، حتى يتسلع بشيء ويدوق شراباً يرويه ويقويه ، فأقسم لا يدوق طعاماً ولا شراباً أو يرى رسول الله .

وأكبرت المراتان لعطوفان حبه لصديقه ونبيه ، فأمهلتاه حتى هدأت الرجل وسكن الناس ، وخرجتا به يتكوى عليهما ولا يقدر على حمل نفسه ثم دخلتا به على رسول الله وهو بتلك الحالة فانكب عليه يقبله ، ورق الرسول لصديقه وصغبه رقة شديدة ، فقال الصديق الصفي : بأبي أنت وأمي ! ليس بي إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أُمي برة بوالديها فادعها إلى الله ! وادع لها عسى أن يستنقذها بك من النار .

ولث بين المشركين يستهين بالخطر على نفسه ، ولا يستهين بحظر بصيب النبي قل أو كثر حيثما رآه واستطاع أن يذود عنه العادين عليه ، وإنه ليراهم آخذين بتلابيه فيدخل بينهم وبينه وهو يصيح بهم . « ويلكم ، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ » فينصرفون عن الشيء ويتحون عليه يضربونه ويجذبونه من شعره فلا يدعونه إلا وهو صديع .

ولما أدن له النبي في الهجرة إلى الحبشة بعد ما ابتلى به من عنت المشركين غضب لرحلته لأكرمهم من القوم ولحق به ربيعة بن فهيم المعروف بابن الدُّعْنَة فقل له . إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج . إلك تُكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقرى الصيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأد لك جار . ارجع واعد ربك ببلدك .

وظاف ابن الدُّعْنَة عشية في أشراف قريش يبلغهم أنه أحار أبا بكر فعرفوا له جواره وقالوا له مره فليعبد ربه في داره يصلي فيها ويقرأ ما يشاء ، ولا يؤذينا ولا يستعلن به ، فإننا نخشى أن يفتن نساء وأبناءنا .

إلا أن أبا بكر بسى بقضاء الدار مسجداً يصلي فيه ويرتل القرآن ، ويستمع له النساء والأطفال فيجتمعون إليه . منهم من يسخر ومنهم من يعجب ويسأل عن الخبر . فمزع المشركون وطلبوا إلى ابن الدُّعْنَة أن ينهائهم أو يسترد منه ذمته ، فأبى أبو بكر أن ينتهي عن الجهر بالصلاة والقراءة ، وقال لابن الدُّعْنَة فإني أرد إليك جوارك وأرصى بجوار الله عز وجل !

وبقى بمكة طوال مقامه بها يعمل لدينه ولنسبه ولا يعمل لنفسه إلا ما ليس  
 عنه غنى من طلب المعاش ، يدعو وجوه الناس ويعرض الأمر على القبائل ،  
 ويُعنى فى الدعوة بصلاح سيرته ورحابة قدره ويقين الناس باستقامة قصده ، ما  
 قل أن يغنيه دليل العقل أو نقاش الجدل والملاحاة . وكان تعرض للأذى فلا  
 يعنيه أن يتقيه كما يعنيه أن يقبى منه النبى وسائر المسلمين فكان يُعين الفقراء  
 ويُعتق الموالى الذين يُسامون العذاب فى سبيل الله ، أو يحمل المغارم ويهيئ لمن  
 أراد الهجرة وسائلها ، ولا يكون عمل من الأعمال ينفع الدين الجديد وينفع أهله  
 إلا وله سهم فيه .

ثم كانت هجرته إلى المدينة فكانت أخطر هجرة أقدم عليها مسلم من أهل  
 مكة . إذ كان كهار قريش يقيمون لكل مهاجر من الأرصاء والعيون كفاء قدره ،  
 وكانت أرصاءهم وعيونهم على السبي أكثر ما استطاعوا من غلة وكيد وحيلة  
 فكانت الهجرة فى صحبة النبى شرفاً من شرفين ، لا يدرى المرحح بينهما أيهما  
 أحق بالإعظام . إما محازقة بالحياة ، وإما يقين لا يحامر الرب أن السى باح فى  
 حماية ربه ، ولو كان فى الهجرة ما فيها من فراق الموطن أو الهجوم على فراق  
 أرحب منه وأقسى ، وهو فراق الدنيا .

فتلقى أبو بكر الإذن بهذه الهجرة كما يتلقى البشارة بالسلامة قالت بته  
 عائشة رضى الله عنها . « ما شعرت قبل ذلك أن أحداً يبكى من المرح حتى  
 رأيت أبا بكر يبكى حين أذن رسول الله ﷺ بصحبته » .

وقالت بته أسماء رضى الله عنها « لما هاجر رسول الله ﷺ ، وهاجر أبو بكر  
 معه احتمل أبو بكر ماله كله خمسة آلاف درهم أو ستة . فدخل عينا جدى  
 أبو قحافة وقد ذهب بصره . وقال : والله إني لأراه قد فجعكم بماله كما فجعكم  
 بنفسه . قلت : كلا يا أبت ، إنه قد ترك لنا حيراً كثيراً ، وأخذت أحجاراً  
 فوضعتها فى كوة البيت الذى كان أبى يضع فيه ماله ، ثم وضعت عليها ثوباً ،  
 ثم أخذت بيده وقلت : يا أبت ، صعد يدك على هذا المال فوضع يده عليه وقال :  
 لا بأس إذا كان قد تراء لكم هذا فقد أحسن ، وهى هذا بلع لكم ولا والله ما  
 تراء لنا شيئاً ، ولكنى أردت أن أسكن الشيخ »

\*\*\*

وكذلك أقبل الصديق على الإسلام وهو عالم بالبدى هو مقل عليه لم يقل له أحد ولا قال هو لنفسه إن الأمر أهون مما توقع ، وإن البلاء بعقدته التي تحول إليها أحف مما وجد ، فلم يجد نصيباً وكان يرحو الراحة ، ولم يجد عُرْفَ وكان يرجو المتفعة ، ولم يجد عداً من قومه وكان يرجو منهم المودة ، ولم يجد خطراً وكان يرجو السلامة ، وإنما دخل في شيء يتوقع ما هو ملاقيه فيه ، وبراء دون حقه من المصايبة والحفاظ والاحتمال ؛ لأنه الدين . لأنه الحياة العنية والحياة الباقية . لأنه الحق ودونه الباطل ، والهدى ودونه الضلال

فما أقبل إنسان قط أصدق من هذا الإقبال ، وما تأهب إنسان قط لبلاء في مسيل صميره وربه أعظم من هذه الأهنة ، وما نفس الصديق عند إنسان قط أغلى من هذه النفاسة . فهي سلامة النفس وسلامة الآباء والأبناء وسلامة المال والعتاد وسلامة الدنيا بأسرها يعلقها بكلمة صدق من رجل صادق ، وإن أناساً ليصدقون غاية التصديق ثم لا يخاطرون في مسيل الصديق برزق يوم ولا براحة ساعة .

نه الصديق .

وما وصف بكلمة واحدة هي أجمع لخلائقه من كلمة الصديق ولقد رأينا أناساً من السابقين يستنكرون على عربى في اجاهلية أن يُقرّم الهداية الدينية بهذه القيمة التي لا تعلوها قيمة ولكنهم محطنون .

لأن العربى الجاهلى عرف « الحق » وعرف بيع الحياة في مسيل « الحق » كما يراه . حق الجوار أو حق العرض أو حق الشرف والدمار وأبو بكر حاصية كان من يرفعون الحقوق ويكفلونها لأهلها ، وكان من يكرهون البعى ويقيمونه على أهله .

فإذا عرف « الحق » الأكبر فغير عجيب أن يراء هذه الرعاية وأن يكفله هذه الكفالة ، وهو مهياً لعرفانه بكرم الخليفة وطيب التحيزة واستقامة العطرة رصفاء القرينة



وهد عاش أبو بكر في زمن كان عقلاؤه في كل أرض يتطلعون إلى هداية من السماء ، ويحيل إليّ أن انتظار الهداية من السماء لم يطل في زمن من الأزمان ، ولا سيما الزمن الذي يعم فيه الفساد وتغيّب به حيلة الإنسان ، وحسبنا أننا بعد الإسلام رأينا أناساً يترقبون « المهدي » الذي ينشر العدل كلما عم الجور ، ويأمر بالعرف كلما فشا المنكر ، ويهدي إلى سواء السبيل كلما استحكم الضلال .

وقبل البعثة المحمدية كان أناس ينتظرون الهدى من نسل داود أو ينتظرونه من نسل إسماعيل بن إبراهيم .

وسمع أبو بكر ما سمع من هدى في رحلته إلى اليمن ، ورحلته إلى الشام ، وفي حديثه مع ورقة بن نوفل ، وحديثه مع المنكرين بطلام الحاهلية والمستشرقين إلى كل نور جديد .

وهذا محمد بن عبد الله يدعو دعوة إبراهيم : دعوة الأب الأكبر الذي يشمل العرب جميعاً ، ومن فوقها دعوة الله التي تعم جميع الناس .

فَمَنْ أَوْلَى مِنْهُ بِالْدَّعْوَةِ ، وَمَنْ أَوْلَى مِنْهُ بِالتَّصْدِيقِ ؟

إنه استشار حلقه القويم فهده ، وإن مشورة العقل وحدها لتهديه هذه الهدية ، حيثما وازن وقابل فأحسن إيوارته والمقابلة بين جميع ما ينتظم فيها من شئون تلك الزمان .

كان أبو بكر في اهتدائه إلى الإسلام هو أبو بكر في نشأته وسليقته وجملته أحواله وأحوال قومه وعهده .

وكان أبو بكر في إسلامه هو أبو بكر فيما وصف به وفيما جد عليه من إيمان المصدق بدينه وحماسة المعجب ببطله .

كان إسلامه إسلام الرجل الكريم السمح الودود . يستمسك بالمصدق والتصديق ويُخلص في الإعجاب بالبطل الذي هداه إخلاصاً لا شيةً فيه . فهو يلين في كل حالة ويشدد في حالة واحدة هو فيها أشد الأشداء . مرجعها إلى كل ما اتصل عنده بقوة التصديق وقوة الإعجاب

قال بعد مبايعته بالخلافة : « إنما أن متبع ولست بمبتدع » فجمع إسلامه  
أجمع صفة وأحسنها في هذه الكلمات .

وربما عرّض له من الأمر ما ليس يتضح فيه طريق الاتباع ، فيخرج إلى الناس  
يسألهم ثم يقول « الحمد لله الذي جعل هيب من يحفظ علينا سنة نبينا »

فلا يستدع إلا بعد استقصائه كل مرجع من مراجع الاتباع

وهي هذا هو شديد عاية الشدة ، بعيد من اللين واليهوادة ضاية البعد ، وهو  
الرجل الذي اتسم في حياته كلها باللين واليهوادة .

فتصديق المؤمن وإعجاب المعجب ببطله العرير عليه ، هما تفسير كل شدة  
يشتدّها الصديق الخليم الودود

هو شديد في تفسير جيش أسامة لأن النبي ﷺ ولاه وأمر بتسييره ، وما  
يكون له أن يصرح رجلاً استعمله رسول الله ﷺ ولو تحفظته الذئاب ولم يبق في  
القرى أحد غيره .

وهو شديد في حرب الردة ، لأنه لا يترك عقلاً كان رسول الله ﷺ يأخذه من  
المرتدين .

وإذا رأيناه يتردد بين اليهوادة والشدة في محاسبة بعض الناس فالشدة التي  
مرجعها الترام حجة الرسول والاقتداء بقدوته في كل شيء هي أقرب التفسيرين  
إلى فهم عمله ، وهي أغلب من طبعه من اللين واليهوادة ، على اشتهاره بهما في  
كل ما عدا ذلك

فاليهوادة ليست هي التي تفسر لنا عمله في ترك جزاء خالد بن الوليد على  
البناء بامرأة مالك بن نويرة ، والبناء ببنت مجاعة في حرب بني حنيفة ، وتوزيع  
الأموال وتأخير الحساب ، وإنما الذي يفسر لنا هوادته معه أنه سيف من سيوف  
الله ، ولا يعزل أبو بكر من استعمله الرسول وله مندوحة عن عزله .

ويتبين لنا مناط الشدة واللين عنده في جنابة واحدة استصغر فيها العقوبة على امرأة واستكبر العقوبة نفسها على امرأة أخرى ، وذلك إذ كتب إليه المهاجر بن أبي أمية الخزومي يقول له : « إن مغنيتين تعنت إحداهما بثلث رسول الله ، وتعنت الأخرى بثلث المسلمين ، فقطع يديهما وترع ثيابهما لتكفيا عن العناء . فخطأه أبو بكر لأن الأولى كانت أحرى بالقتل ، وأن الثانية كانت أحرى بالصنع . . . وأوصاه أن يقبل الدعة وأن يحل المثلة » فإنها ماثم ومُنْقَرَة إلا هي قصاص »

ففي تعظيم النبي كل شدة قليلة ، وفي أمر غيره كل صفح جائز مستحب محمود ، وليست هي الحمة التي يعوزها التفكير قد فرقت هذه التفرقة بين العقابين ، لأن هجو النبي قدح في لباب الدين وأُسّ النظام ، وهجو المسلمين وز قد يأتيه المسلم في خلاف بينه وبين قومه ، ولكها على هذا ساذجة قد عرضت لنا طبع أبي بكر في حالتيه : لين وهوادة ، وإعظام لا لين فيه ولا هوادة ، وإنما هي الشدة كأشد ما تكون .



وربما تهيب الأمر فيه نفع لا شك فيه إذا لم يسبقه النبي ﷺ إلى صنعه أو صنع مثله ، لفرط اتقائه أن يصنع ما ترك أو يترك ما صنع ، كما تهيب جمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر ، فقال : « كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ » ثم استصوب جمعه لما فيه من خير .

فسماحة أبي بكر كانت طبيعة فيه لأنه طبع على الرفق والأناة والأخذ بالحيلة واستبقاء المودة .

وشدة أبي بكر كانت طبيعة فيه ، لأنه طبع على تصديق من هو أهل لتصديقه ، والإعجاب من هو أهل لإعجابه ، ولن ترى شدة في إنسان كشدة الرجل السمع في تزيه صفيه وحبيبه وموضع إعجابه ، ولا حرصاً في إنسان كحرصه على القدوة بذلك الصفي الحبيب المحب به ، واجتناب التحلف عنه والخيد عن طريقه .

وفيما عدا هذه الشدة لم يكن أبو بكر إلا حطماً غالباً ورحمة غالبة ؛ ولم تنفرج أمامه طريقان . إحداهما إلى العفو ، والأخرى إلى البطش إلا أخذ بالأولى وأعرض عن الثانية .

شاوره النسي <sup>عليه السلام</sup> في أسرى بدر فقال : « يا نسي الله ؛ هؤلاء يتوالمع والعشيرة والإخوان ، وإنني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً » .

وشاوره حين اجتمعت قريش لصدّه وصد المسلمين عن البيت فنادى بالناس : « أشيروا أيها الناس على أتروا أن أصبل إلى عيالهم ودراري هؤلاء الدير يريدون أن يصلبونا عن البيت ، فإن فاتونا كان الله قد قطع علينا من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين ؟ » .

فقال أبو بكر : « يا رسول الله ؛ خرجت عامداً لهذا البيت ، لا تريد قتال أحد ولا حرباً ، فسوجه له فمن صدنا قاتلناه » . . . . . يقاتل من صده عن البيت ولا يقاتل من لم يصدّه .

وشيع جيش أسامة فلم ينس أن يوصيه بالضعفاء وهو ذاهب إلى القتال . « لا تحونوا ولا تغلّوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تمقروا نخلاً ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآية هيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فادكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد حصوا أوساط رؤوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب فاحفقوهم بالسيف خففاً اندفعوا باسم الله » .

وليس أكثر من الشواهد التي تشهدنا على قوة الدين في نفوس من آمن به إلا أننا لا نعلم بينها شاهداً أصدق في الدلالة على تلك القوة من أن يدين المرء

نفسه بالدين أمام أعدائه ، كما يدينها به أمام إخوانه في اعتقاده ومن شواهد ذلك في إسلام الصديق أنه كره المثلثة بأعدى الأعداء في ميدان القتال ، فلما بعث إليه عمرو بن العاص برأس بُناد بطريق الشام أنكر فعله أشد إنكار ، ولم يخفف من إنكاره قول عقبة بن عامر له : إنهم يصنعون ذلك بنا ، بل قال : أَيْسَتُون بفارس والروم ؟ لا يحمل إلى رأس إنغا يكفى الكتاب والخبر .

فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو في قتال وهذا بلاع الدين القويم في نفس إنسان .



وهكذا كان مسلكه مع إخوانه وأعدائه ، وفي لينة وشذته ، وفي مشرق كل طريقين ، إحداهما إلى الشدة وأحدهما إلى اللين ، فقال النبي ﷺ يصفه ويصف عمر : « . . إن مثلك يا أب بكر مثل إبراهيم قال : فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإني عفور رحيم ، ومثلك يا أب بكر مثل عيسى قال : إن تعدبهم فإني عبادك ، وإن تعفر لهم فإني أنت العزيز الحكيم » . و « إن مثلك مثل يا عمر مثل نوح قال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ومثلك مثل موسى قال : ربما أطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

ولم يكن عمل من أعماله في قضاء حقوق دينه وأداء فرائضه إلا يدل على هذه الخليقة التي اتصف بها في جملة حياته الإسلامية ، وهي المبادرة في كل ما فيه قدوة بالنبي ﷺ ، والأخذ بالخيطة في كل ما يحتمل التعجيل والتأجيل

سأله النبي : متى توتر ؟ قال : من أول الليل

وسأل عمر : متى توتر ؟ قال : من آخر الليل

فقال لأبي بكر : أخذت بالحرم ، وقال لعمر : أخذت بالعزم

وصلاة ألوتر كما لا يخفى تقضى من بعد العشاء إلى ما قبل الفجر ، ويرى بعض الأئمة أنها فريضة ، ويرى بعضهم أنها سنة يقتدى فيها بالنبي .

فأبو بكر يبادر إلى أدائها ويأخذ بالحيلة محافة أن يموت أوانها إذا أجلها ، وعمر الشديد على نفسه الوثائق من عريته يعلم أنها لن تفوته وأنه لن يغلبه عليها غالب من النوم ، فيؤجلها إلى ما قبل الفجر ، وهو واثق من أدائها في أوانها .

لهذا قال النبي لأبي بكر : إنه أخذ بالحزم وهو الأحوط ، وقال لعمر : إنه أخذ بالحزم وهو الأقوى ، وعرف صاحبه في هذه الفارقة الصغيرة كما عرفهما في كبار الأمور وصغارها

وإن العقيدة التي تتسع لهدى الرجلين ولهدى الخلقين ولهدى العقليين ، ثم يكون كلاهما إماماً فيها عظيمًا في اتباعها ، فهي عقيدة تتسع لكثير

## الصدق والدولة الإسلامية

قلنا في كتابنا « عبقرية عمر » إن الدولة الإسلامية « تأسست في خلافة أبي بكر رضي الله عنه » لأنه وطّد العقيدة وسيّر البعوث . فشرع السنة الصالحة في بوطيد العقيدة بين العرب بما صمعه في حرب الردّة ، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح . فكان له السبق على حلفاء الإسلام في هذين العملين الجليلين . »

« إلا أننا نسمي عمر مؤسساً للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة لأننا « أولاً » لا نجد مكاناً في التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام ، ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في إقامة دولة كالدولة الإسلامية ، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسساً لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأدانه وأعزها بهيبته وعنفوانه . . . »

إلى أن قلنا : « إنه كان في يوم إسلامه أخذاً في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء . »

والذي قلناه عن عمر في تأسيسه بناء الدولة الإسلامية قبل خلافته يصدق على أبي بكر بهذا المعنى منذ يوم إسلامه قبل سائر الصحابة وسائر الخلفاء .

ويكفي من ذلك أن يذكر الذين أسلموا على يديه من عظماء القوم وصعفائهم على السواء . فقد كان لإسلامه أثر بالغ بين السادة ، كما كان له أثر بالغ بين العبيد والأتباع ، وما هو إلا أن علم الوجوه والعلية من فضلاء قريش أن أبا بكر رضى الإسلام ديناً حتى كان للمقدوة به حجة عندهم أقوى من حجة البيان والإقناع : إن الدين الذي يرتصيه رجب كأبي بكر في مروءته وصلاحه وشرفه واستغنائه واستقامته قصده وسلامه صدره لدين جدير بالاستماع إليه

والنظر في دعوته ، وإن النظر في دعوته وفيما بينها وبين العقائد الخاهلية من  
البؤس الشاسع لكاف وحده لكسب القلوب وتحويل الأذهان ، ولا سيما عند من  
حلا من العرص في دوام العقائد الخاهلية وإحياء الدعوة الحديده أو كل دعوة  
جديدة كائنًا ما كان حظها من الخير والفلاح .

فأسلم على يديه رهط من أكرم السادة وأكبر القادة في الإسلام ، أسلم على  
يديه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي  
وقاص ، وعثمان بن مطعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ،  
وعبد الله بن عبد الأسد أبو سلمة ، وخلد بن سعيد ، ومنهم من أسلم وهو يقع  
أو شاب ناشئ كسعد والزبير ، فكان فتوة بالإسلام حين جد الخلد واشتدت  
سواعده بسواعد فتيان الأبرار .

واشتري نهرًا من العبيد المرهقين ، منهم بلال بن رباح مؤذن النبي ﷺ .  
وكان سيده يخرجه في حمارة العيط فيطرحه على ظهره في بضحاء مكة ويلقى  
بصحرة عظيمة على صلبه ويدعه وهو يقول : لا يرال هكذا حتى تموت أو تكهر  
بمحمد . فلا يزيد على أن يقول : أحد - أحد ، ويردها حتى يوشك أن يعيب  
عن وعيه من ألم العذاب . اشتراه أبو بكر أو استبدله بما يساوي خمس أواق  
ذهبًا فقيل له : لو أبيت إلا أوقية لبغناك ! وقال : ولو أبيت إلا مائة أوقية  
لأخذته ، ومضى في شراء العبيد والإماء بما يطله سادتهم من ثمن يغالون فيه  
ليعجزوه ويدخلوا السلم على نفسه ، وهو لا يبالي ما يبدل من ماله وجهده لينقد  
أولئك الساكنين من أيدي المشركين ويريحهم من قسوة السادة التجريرين . فكان  
كسبه لقلوب الصعفاء أربح للإسلام وأجدر بسمعته ورحمته من كسبه قلوب  
العلية الأعلام وأبلغ في التدين والفضيلة من إقناع بتأفد الحجة وإبلاغ بصادق  
الكلام ولعل الدعوة الجديدة كسبت بين الأمم بهذه الرحمة أضعاف ما كسبته  
بهداية الشرفاء الذين اقتدوا به وذهبوا إلى النبي من طريقه .

ولم يزل في كل عمل من أعماله منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة مؤسسًا لهذا  
البناء الشامخ الذي كان هو أول من قام عليه بعد بانيه . فالدعوة الصريحة إلى  
الإسلام في المسجد بمسمع من قريش ، والهجرة مع النبي من داره ، وبذل المال



في البعث وغير البعث ، وتيسير القدوة للمقتدين بإسراعه إلى التلبية والتصديق كنما التبس الأمر واضطربت الأفكار ، ومحاربتة قريشاً بعلمه وإطلاعه على الأساب كما حاربهم بماله وسلاحه ومشورته ورأيه - بل كل ما عمل منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة ، فهو في جملة ركن من أركان الدولة الإسلامية يجعله بالحق مؤسساً لها مشاركاً في بنائها ، بسطان العقيدة قبل سلطان الحكومة المسموعة .

\*\*\*

ثم كانت البعثة بالخلافة .

وكانت بعثة أسامة بن زيد ، وكانت حروب ثردة ، وكانت بعوث العراق والشام ، فقام على هذه المآثر الثلاث التي لا تقصى حقها من الإكبار كل ما قام بعد ذلك من بناء .

بعثة أسامة وما بعثة أسامة ؟ . . . يستصغرها بعض المؤرخين المحدثين ويقولون إنها من نوافل البعثات ، لأنها بدأت وانتهت بغير فتح وبغير ثمرة وبغير حفظ كبير من الغنائم تلجئ إليه ضرورة من الضرورات .  
وانهم لمخطئون .

وإن الصديق لعلى صواب .

ولقد يكون في صوابه إلهام أو تكون فيه رؤية وقصد مرسوم ، ولكنه سداد على كل حال ، ووجهة قوية هي أدنى الوجهتين إلى النفع والصلاح .

بعثة أسامة كانت العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الإسلامية هي في ذلك الحين خير السياسات .

كان قوامها كله طاعة ما أمر به رسول الله .

وكانت الطاعة - جد الطاعة - مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطأ الأكبر في ذلك الحين .

وحيث يكون التمرد هو الخطأ الأكبر فالطاعة - بل الطاعة الصارمة - هي العصمة التي ليس من ورائها اعتصام

وقد كان التمرد هو الخطر الأكبر في ذلك الحين لا مراء .

كان النفاق يُطلع رأسه في مكة والمدينة ، وكانت القبائل البادية تنساب إلى الردة في أنحاء الجزيرة ، وكان جند أسامة نفسه يود لو استبدل به أميراً غيره ، وكان أسامة أول من يشك في صاعة لمقوم إياه ويترقب أن يحلفه على البيعة أمير سواء تمرّد ، أو نذير بتمرد ، في كل مكان

وطاعة ورجة هنا حيث نبع التمرد ، أو لا سبيل إلى واجب بعد ذلك يطاع طاعة أو لا شيء .

فإن بقيت الطاعة فقد بقي كل شيء .

وها تسعف الصديق طبيعة هي أعمق الطوائع فيه ، أو هي العبقرية الصديقية في أوانها ، وعلى أحسن حال تكون .  
ها تسعفه القدوة القوية بالبطل المحبوب .

وها يقول وقد خوّفه الخطر على المدينة والحيش يفارقها :

« والله لا أحلّ عقدة عقده رسول الله ! ولو أن الطير تخطفتنا ، والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزّن جيش أسامة ! » .

كلمة لو قالها غير أبي بكر لكات كبيرة ، ولكن الذي يقولها أبو بكر وبته أعز أمهات المؤمنين .

فلا حطر إزدأكبر من حطر الاجترء على حق الصاعة في تلك الأوه ، ولو جرت الكلاب بأرجل البنات والأمهات .

ومن المؤرخين المحدثين من قال ما فحواه : إن بعثة أسامة إنما أرسلت ثأراً لأبيه زيد الذي قتل في معركة مؤتة ، وإن قبله في تلك المعركة قد مات بتوّه ، أفما كان إرجاء البعثة من المستطاع وقد أدرك ثأر القائد القتيل ؟

ومن المهاجرين والأنصار من كان يرى الرأي في لقاء البعثة بالمدينة بعد موت السيّد ، وفي مقدمتهم أسامة

ومسهم من كان يرى أن يتقدم للقيادة من هو أسنّ منه وأحبر بغنون القتال .  
ومسهم صمير بين الخطاب .

أما أبو بكر فقد رأى العصمة - حق العصمة - في رأى واحد لا رأى قبله ولا بعده ، وهو الطاعة في غير لى ولا هودة ولا إبطاء ، ولو سم يكن التمرد هو الأفة المخذورة في تلك الآونة لقد كان غير الرأى أصوب ، ولكنه كان أفتها التي لا أفة مثلها ، ثم لا خطر إن سلمت الدولة من شرها ، فلتكن الطاعة إذن هي الصواب ، وهي الملاذ .

وقد صرب المثل الأول في الصداة التي أرادها شيع البعثة وهو ماش على قدميه وعند الرحمن بن عوف يقود دنته حواره فقال أسامة : يا خليفة رسول الله . والله ستركب أو لأنزل فقال : والله لا تنزل ، والله لا أركب وما على أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة .

ثم استأذن أسامة قائلاً : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فعاد عمر بإذنه بإذن القائد الذي هو في مقام الطاعة هناك ، حتى على الخليفة وعلى أكر الصحابة من بعده .

ثم قال لأسامة اصبع ما أمرك به رسول الله ﷺ . ولا تقصرون في شيء من أمر رسول الله .

أفكان المؤرخون المحدثون على صواب في أمر هذه البعثة حين قالوا إنها من السوافل بعد مقتل القائل لريد أبي أسامة ؟

إنهم لعلّى خطأ في كل تقدير قدره ولو جاريناهم فحصرنا أعراس البعثة في ذلك الغرض الوحيد ، لأن مقتل قائد في معركة ليس بالحرمة الفردية التي يعاقب عليها القاتل وحده ، وإنما المسألة هنا مسألة الجيش كله ، وهيمة الأمة التي أرسلت ذلك الجيش وتمثلت فيه بقوتها ومساعدة حوزتها ، فإن لم يقع في روع الأعداء المقاتلين أن ذلك الجيش قوة تهاب وتبال حقها من الثأر فقد بطل العرص كله من القتال .

وفي هذه البعثة بعينها ، ماذا كان يحدث لو أن قبائل عسان وقضاة استصعفت شأن المسلمين وفي أيسبها الطريق بين بلاد العرب وبلاد الروم ؟

كل شيء جائز أن يكون .

وأول إغراء الروم بالهجوم ولهم عون من تلك القسائل ومن يجتمع إليها من المجترئين والمتحفزين ، ولما تقدمهم عن الاجترار والتحفظ هيبة جيوش الإسلام ولقد أدرك أناس في عصر أبي بكر صواب الرأي في إنقاذ تلك البعثة بعد إيفادها وعودتها . فشاع في الجزيرة العربية خبرها ، وروى مؤرخو تلك لفترة أنها كانت لا تمر بقميل يريدون الارتداد إلا تحووها وسكنوا : وقالوا فيما بينهم : لو لم يكن المسلمون على قوة لما حرج من عندهم هؤلاء .

فإذا كان بقاء أسامة بمدينة حائزاً لدفع خطر ، فإرساله كذلك حائز لدفع خطر مثله ، وعازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة ، وهو يومئذ ألزم الدروس

\*\*\*

ثم تكرر هذا الدرس في أوسع نطاق لأنه نطاق الدولة الإسلامية كلها في ذلك الحين ، وجاءت حروب الردة التي هي مصخرة أبي بكر الكرى غير مدافع ، أو هي مفخرته الخاصة التي انفرد بها في تاريخ الدعوة الإسلامية بعير شريك . فكان « هو نفسه » كما يقول الغربيون في تعبيراتهم حين يذكرون الأعمال التي قدن على صاحبها بجميع حصائمه ولباب شعوره وتفكيره ، وتبرزه على حقيقته التي لا عاراة فيها ، خلافاً لأعمال أخرى قد تكون فيها هذه « الحقيقة » موضع التباس أو اختلاف .

ففي حروب الردة كان أبو بكر رضي الله عنه هو أنا بكر على سوائه وجلاته ، ولم يكن موقفه فيها غريباً كما يسبق إلى الذهن للوهلة الأولى حيثما يخطر للذهن أنه الرجل الوديع الرفيق ، وذلك الموقف أولى المواقف بالصلابة الصارمة والسأس الشديد .

عصب الصديق رضي الله عنه في حروب الردة عصته التي لا بد أن يعصها ، وإلا فما هو بعاصب .

أثارته ردة المرتدين لأنها مسته في كل ما يُشيره ، وأصابته في كل ما بُعِزّه وبعار عليه .

وهناك الصديق المحب لصديقه ، والمعجب الغيور على ذكرى بطله ، يشيره أن  
يقدر الغادرون بعهد ذلك الصديق وذكرى ذلك البطل ، ولما تمض له فى قبره أيام  
أو أسابيع .

وهناك المسلم « الصديق » الذى آمن ببشارة النصر ولو كره الكافرون ، كما  
آمن من قبل بانتصار الروم على الفرس بعد بشارة القرآن فخاطر على ذلك النصر  
بالمال والميثاق ، ولم يخامرهُ الشك لحظة أنه الرابع لا محالة فى ذلك الخطار  
وكذلك غضب فى حرب الردة غضبة للوائق من الحق ، اللوائق من الغلبة ، اللوائق  
من العاقبة ، لأنه سمع البشارة السماوية ليصرن الله الإسلام على الدين كله ،  
فإذا حارب فى سبيل الإسلام فهو لا محالة على حق وهو لا محالة منصور .

وهناك الرجل « الدقيق التكوين » يقابل بالاستخفاف فى أول خلافته وقد  
راض نفسه طوال حياته على المروءة والكرامة والوقار ، أنفة من الاستخفاف  
وكراهة للصغر والاستصغار ، فإذا بهم يستقبلونه بما أشاح عنه طوال حياته ، وردا  
بالأمر صريح بالمقال فضلاً عن صراحته بلسان الحال ، هم يستكثرون عليه كنيته  
أبا بكر فيكونه أبا الفصيل ؟ وأعوانه يردون عليهم ذلك الاستهزاء متوعدين .  
لثرونة هذا أبا الفحول .

وهناك الرجل الذى فيه من وثاقة العزم ما قمع به ثورة الحجة وهى أصيلة  
فى تركيبه ، ومن كان له ذلك العزم فهو مُنْجده حين يحتاج إليه ، وما كان  
محتاجاً إليه قط لو أنه استغنى عنه فى فتنة الردة ، وهى تفاجئه بالخصب المثير .  
وهناك الرجل الذى كان مثلاً فى الاقتداء بالرسول حيثما سبقت سابقة  
يُقاس عليها ، وقد سبقت هذه السابقة فى فريضة من فرائض الإسلام وإن لم  
تكن فريضة الزكاة سبقت فى فريضة الصلاة ، وذهب أنس من المثقفين  
يعرضون على النبی اسلامهم على أن يعفيهم من الصلاة ، فقال ﷺ : « إنه لا  
خير فى دين لا صلاة فيه » . وكذلك لا خير فى دين لا زكاة فيه ، فإذا جاء  
المرتدون يزعمون أنهم مسمون يقبلون فرائض الإسلام ولا يقبلون الزكاة فليس  
أبو بكر بالذى يقبل منهم ما يزعمون .

إنما كان أبو بكر إدد أصدق ما كان لنفسه وسرائر مزاجه يوم قابل الردة بدرس الطاعة التي لا هودة فيها ، ولم يكن في باطل الأمر عريباً عن المعهود فيه ، وإن لاح في ظاهر الأمر أنه جاء بالعريب من رجل وديع رفيق .

ولقد أكثر المؤرخون من الكتانة عن حروب الردة ما لم يكثروا قط في حادث من حوادث صدر الإسلام ، وكانوا على حق حين وازنوا بين دعوة الإسلام الأولى في مقاومة الشرك ودعوة الإسلام الثانية في مقاومة الارتداد وإنما كانت العلبة على فتنة المرتدين فتحاً جديداً لهذا الدين الناشئ ، كأنما استأنفت الدعوة إليه من جديد .

ولكنهم لم يكونوا على حق حين حاولوا أن يصبغوا الردة بغير صبغتها وأن يفهموها على غير وجهها ، ولا سيما النقاد المفرضين الذين انحرفوا بها عمداً ليتسللوا منها إلى الطعن في نشأة الإسلام . فقلوا : إن ارتداد الأعراب إنما كان دليلاً على أنهم قد أسلموا مكرهين ، فما عثموا أن وجدوا سبيلاً إلى النكسة على أعقابهم حتى نكصوا مسرعين .

والمسألة أوضح من هذا لو أراد أولئك النقاد طريق الوصوح .

المسألة أقرب شيء إلى طبائع الأمور في أشباه هذه الأطوار من كل دين ومن كل مذهب ومن كل دعوة تتناول الناس عامة وخاصة ، بل من كل فكرة تُخامر الأذهان والقلوب حتى ما كان من قبيل الحكمة والفلسفة والدراسات العلمية التي يُعنى بها خاصة الباحثين ولا تتسرب دعوتها إلى السواد فماذا حدث في الحكمة بعد سقراط ؟ وماذا حدث في مذهب الشوء بعد داروين ؟ وماذا حدث في علم الأخلاق بعد كنت أو بعد بشتام أو بعد برجسون ؟

فالذي حدث من ردة العرب هو الطبيعي المسطور أن يحدث ، والذي تخيله النقاد المفرضون واجباً مقررًا هو العريب الذي لم يحدث قط في دعوة من الدعوات .

والأفما هو ذلك الذي كان يتحمله أولئك المفرضون ؟ . أكانوا يتخيلون أن ديناً جديداً يملك الناس جميعاً في الجزيرة العربية فيسرى إلى كل نفس ، ثم

يسرى من كل نفس إلى جميع بواطنها وخفاياها فلا يُبغى فيها بقية للنكسة والارتداد؟ أكانوا يتخيلون ذلك الذين مقتنعاً في مدى تلك السنوات القليلة كن أثر لأطماع الخليفة الأدمية وكل حنين في قلوب الزعماء إلى الجاه القديم ، وكل فصلة من فضلات الجاهية ، وكل باب من أبواب الدسائس التي تنفذ إلى جزيرة العرب من طريق الدول الأحتية والغصب الداحلية ؟ . . أكانوا يريدون من الأعراب بعد بضع سنوات أن يوعلوا في الإسلام أشد من إيغال قبائل نجران أو العساسنة في الدين المسيحي بعد بضعة قرون ؟

إن تحيوا ذلك فالنوم على الخيال المصطل وليس على الواقع ولا على العقل السليم ولا على الإسلام .

وما من شيء أحرى أن يدل على الشاة الطبيعية في الإسلام من هذه العوارض الطبيعية التي عرضت له في حياة بيته وبعد موته ، وأولها حرب الردة وما اقترن بها من عوامل للنكسة والاضطراب .

لقد كان النبي مناط لاستقرار في الجزيرة العربية بعد نجاح دعوته ودخول العامة والخاصة في دينه ، أو كان كما قال الشاعر .

فإنك موضع القسطاس منها فتمتع بجيبها أن يميلا

وإذا غاب « مناط الاستقرار » أو موضع القسطاس فماذا يكون ؟ بل ماذا يمكن أن يكون ؟

يكون نقيض الاستقرار لا جرم .

أو يكون الميل هنا والميل هناك ، ولو كان المارص الذي طرأ قد عرض لأحلام من المادة لا تعرف الدين باختيار ، ولا تعرفه باضطراب .

فلما غاب « مناط الاستقرار » لأول مرة حدث ما لا بد أن يحدث ، وطرأ التقلقل الذي لا مناص منه في كل بيئة ريشما يروى ، الأثر الطارئ وترجع الأمور إلى نصاب فعرض لكل طائفة من الناس تقلقل يناسبها ويجرى في مجراها .

تقلقل الأنصار وهم مسلمون حق مسلمين ، واجتمعوا في سقيفة بنى ساعدة  
يبتون بتهم في مصير الخلافة ، لأنه مصير لا بد لهم من البت فيه

وتقلقل المهاجرون من بايع منهم أب بكر ومن لم يبایعوه ، ومهم عبدة النسي  
وأقربهم إليه أو أعظمهم إيماناً بدينه والغيرة عليه

وتقلقل في مكة أساس قريو عهد بالنفاق ، فهموا بالعصيان لولا ندير من  
وليّ السلطان

أما القبائل فيما وراء ذلك فكان نكل منهم نصيب من التقلقل يناسب  
نصيبتها من القرب والبعد والمودة والجماء .

فأقربهم إلى مهد الإسلام كانوا يحصلون للنبي ويخرجون على من ولي  
الحكم بعده .

أطعنا رسول الله مد كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبي بكر ؟

وأناس منهم أمرو بالركاء ولم يؤمنوا بمن يؤدونها إليه ، واحتجوا بأيات من  
القرآن الكريم حرفوها إلى المعنى الذي أرادوه ، ومنها : ﴿ حُدَّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ  
تُظَهَرُ لَهُمْ وَتُرَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ... ﴾ . . . قالوا : فلسنا  
ندفع ركائنا إلا إلى من صلاته سكن لنا ! وأبوا أن يدفعوها وإن علموا أن دفعها  
مريضة من فرائض الدين ، فهم لم يسكروا الفريضة ولكم أنكروا الجبّة .

أما الأبعدون عن مهد الإسلام فكان لهم تقلقلهم الذي يعرض لكل بعيد لم  
يسكن قط إلى قرار ، وإما هو في اضطراب مستور يتربص أن يشب إلى الجهر ما  
تهيأ له وثوب .

فأبناء اليمن كان لهم مثل قديم ، وكانت لهم أسر معوقات في الحكم تتداوله  
تارة بسلطان الحبشة ، وتارة بسلطان فارس ، وحيثاً بين هذا وذاك سلطان أهل  
البلاد ، وكانت لهم كهانة تمتزج بكل عقيدة من العقائد الكتابية وغير الكتابية .  
فلما اضطرب بينهم ميزان الأمور برز كل عامل من هذه العوامل في الفتنة بأثر  
من آثاره ، ونجح بينهم الأسود العنسي صاحب النبوة فيهم - وهو مسخ مشوه -



لأن التشويه كان من آلات الكهنة والسحر عندهم ولم يكن من عوائق السجاح في أمثال هذه الدعوات . فكان وفقاً لشروط الكهانة اليمينية على شبه من كاهنهم « سطيح » الذي قيل فيه إنه كان لحمًا بغير عظم ، لو كان من لبس العظام بحيث يدرج جسمه كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه ، وهي مع هذا تمس باليد فيؤثر فيها لمس الخفيف لفرط لينها ، وعلى شبه من كاهنهم « شق » الذي سمي بهذا الاسم لأنه أشبه بنصف إسان مشقوق لنحافته واسلاخ أعصابه فكانت حقارة الأسود العنسى آلة من آلات تحاجه تبطل العجب ولا تدعو إليه ، كلما استعظم أحد أن يظفر مثله بما ظفر به من الفوز العاجل في ندابة الفتنة اليمينية .

وحيثما رجعت الفسة إلى مطاعم العنسى وأمثاله من المشعوذين الطامحين إلى الصولة فقد بدأت تلاحظها من أيام النبي ﷺ في أنحاء متفرقات من الجزيرة ، لأن هؤلاء المشعوذين لم يفهموا الإسلام ولم يعقلوا قط أنه دعوة إصلاح لخير الناس ، وكل ما عقولهم أنه حيلة كاهن أطلحت بحق بهم أن يطمعوا في الفلاح لأنهم كهان لا يعرفونهم وسائل السحر وحياتل الخديعة . فتطلعت ردوس الفتنة من هنا وهناك والسي ﷺ بقاء الحياة ، إلا أنها لم تتفاهم ولم تلع مداها من الانتشار في حياته ﷺ .

ولكنها تجمعت إلى يوم الرجعة التي أرتجتها الجزيرة العربية بعد فراقه هذه الدنيا . وهي رجعة لا محيى عنها ، فما كان معقولاً ولا منطوقاً أن يحدث هذا الحادث الحلل بغير رحته التي تقترون به لا محالة ، وإذا وقعت الرجعة فما كان معقولاً ولا منطوقاً أن تقع على غير هذا المثال .

وخاية ما يفهم من هذه الرجعة التي لا غربة فيها أنها الأثر المعقول لسطور لطامع الطامعين وخلائق الأعراب ودوى الجهالة من أهل البادية في كل جيل . فما عرف التاريخ قط أساساً منقطعين للبداءة لأولى إلا عرف منهم الاستعداد لامثال هذا الانتفاض كائنًا ما كان الدين الذي ينتحلونه والرمز الذي قصوه في انتحاله . وربما مضت مئات السنين على قبيلة من البادية المعركة في البداءة وهي تدبى بالمسيحية أو الإسرائيلية ثم تتقلب مثل انقلاب الردة في رجعة من

الرجات النفسية أو الاجتماعية التي تشبهها ، ولا يستغرب العالمون بطباع الناس هذا الانقلاب بعد مئات السنين كما استغرب أناس أن ينقلب بعض أهل البادية على الإسلام أو على دولة الإسلام ، ولما يقض على دحولهم فيه عشر سنين .

على هذه الحقيقة أن تفهم فتنة الردة إنصافاً للتاريخ إن لم يكن إنصاف الدعوة الحمديّة بما يعنى أولئك المستغربين .

ولإنصاف التاريخ يسعى أن تفهم هذه الفتنة على أنها أصدق امتحان للدعوة الحمديّة خرجت منه دعوة من الدعوات .

فإذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن ريع الزائغين وريبة المرتابين فهي قد كشفت كذلك عن الإيمان المتين والعداء السمع واليقن المبس فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمية تشرق بها صفحات الأديان ، وحاءت الشهادة الأولى على لسان رجل من أصحاب طليحة سألته : ويلكم ما يهرمكم ؟ فقال له : أنا أحدثك ما يهرمنا إنه ليس رجل ما إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وإن ليلقى قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه !

وقد امتحنت دعوة لإسلام وامتحت جميع الدعوات التي نهضت لمناقسته بقوة السلاح وقوة الدهاء وقوة العصية فعصت له بالبقاء وفصت عليها بالفناء . ولو كان لجاح الدعوة الإسلامية لجاح سلاح أو دهاء أو عصية لقد كان أصغر متنبئ من أدعياء الردة حليفاً أن يطمع في ذلك العجاج ، لأنهم بدأوا دعوتهم ومعهم من جموع القبائل التي تعتر بعصيتها ما لم يتهيا لصاحب الدعوة الحمديّة قبل عدة سنين ، وصدفهم أناس كانوا يقولون إن نبياً كادتا منهم حير من نبي صادق من مضر أو قريش .

وأصدق من هذا كله في امتحان الدعوة الحمديّة أنها خرجت من فتنة الردة وهي شهادة الواقع والحق بسيرة حياة تسير على سنن الحياة الصحيحة التي لا زيف فيها ولا اضطناع يعرض لها الخطر من أسبابه ، وتعرض لها السلامة من أسبابها ، وتنجو كما تنجو البنية الحية القوية حيثما تجمعت فيها عناصر النجاة

فليست هي جسمًا محجًا بالأوهام كما زعم طليحة الكذاب لجسمه أنه لا يعمل فيه السيف ولا تصيبه السهام . ولكنها جسم صحيح يعمل فيه السيف وله مع ذلك ما يدفع الطعن وسرى من الجراح .

ولا شك أن المسلمين لم يواجهوا جواب الخطر كلها في حروب الردة دون المرتدين الذين أشعلوا الفتنة وصلّوا بارها . فقد كذب حروب الردة فسة كجميع المن اتى لا يؤمن خطرهما على المريقين المشتركين فيها فكان فيها جاسها الخطر على أهل الردة كما كان فيها جاسها الخطر على الإسلام . وما كان منها خطرًا على فريق فقد كان فيه للفريق الآخر أمان .

وقد كان أماسها على الإسلام أن المرتدين متفرقون لا تؤلف بينهم وحدة معلومة المقاصد فى السياسة ولا فى الدين ، وأهم هددوا المدينة بجموع البادية فأثاروا فيها سليقة الدفاع ووجدوا بين صفوفها وهى موشكة أن تتصدع بين الشيع والأهواء . فعلم أهل المدينة كما عدم أهل مكة أنهم مهددون بجائحة من السادية لا يطمئنون بعدها إلى مصير . وهبوا يتعاونون ويتكاتفون لانقاء تلك الجائحة سواء من بيع الخليعة ومن ثاقل عن البيعة فى أوائلها . وتقدم على رموس المدافعين أناس كانوا فى يوم البيعة متخفين ، وحرى القضاء بوقوع أهل الردة فى خطأ من أخطاء العجلة كان فيه نفع - أى نفع - للمسلمين . فهجموا على المدينة مغترين بكثرتهم وقلة المدفعين عنها ، ولم يحسنوا الأبهة للهجوم كما أحسن المسلمون الأبهة للدفاع . فثارت حمية الأنصار والمهاجرين معًا للدين الذى آمنوا به ، وثارت حميتهم معًا للجوار الذى روعوا فيه ، وكانت هذه الهجمة وبالاً على الردة وفاتحة من فواتح الهزيمة ، ولو أنهم قنعوا بالسقاء فى باديتهم والتوغل فى صحرائهم لقد كان ذلك أدنى إلى لحزم من ناحيتهم ، وإن لم يكن حتمًا لزامًا أن يعضى بهم أحر الأمر إلى نجاح .

وزاد فى بواغث العثمانينة إلى جانب المسلمين أن عاد جيش أسامة سائًا موفورًا ولما ينقص على معشه شهران على أرجح الأنوال . عاد بالأسلاب والخناثم من تحوم الروم ولم يقتل منه أحد ولا بدا عليه عتاء أو مشقة . كان فيه .

ولا تجهل قبائل البادية ما هي دولة الروم التي اجتراً الجيش على تحومها في غير مسألة . إنهم يعلمون ما هي دولة الروم بالعيان أو يعلمون ما هي دولة الروم بتحويل السماع ، وجيش يذهب إلى تحوم تلك الدولة ثم يعود غير مسحوق ولا منقوص بل يعود بالغنائم والأسلاب ، كيف تستخف به قبيلة هائمة في عرض صحراء ؟ وكيف تحصى دلالة هذا الحدث على أناس اشتبهوا بتسم الأختار كما اشتبهوا باستطلاع الدلائل على القوة والضعف وعلى الخطر والأمان ؟

إن جيش أسامة قوة ذات بال في الجزيرة العربية ، ولكنه فعل بسمعته ومعناه ما لم يفعله بقوته وعذته فأحجم من المرتدين من أندم وتفرق من اجتمع ، وهادن المسلمين من أو شك أن ينقلب عليهم ، وصنعت الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرجال وقبل أن يصنع السلاح

\*\*\*

تلك فتنة الردة بحملتها ، وبجانبى الخطر والسلامة فيها .

قلها أبو بكر رضي الله عنه بأحزم ما تقابل به من مبدئها إلى منتهاها ، وعالجها علاجها في كل خطوة من خطواتها وكل ناحية من نواحيها .

فبدره بأحزم من صبيحتها الأولى ، وتعقبها بالحرم يوم بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى أسلمت مقادها وثابت إلى قرارها

وأحزم بأحزم في تلك الفتنة عقابه للمرتدين الذين مَرَفُوا على العصيان ولم يستجيبوا بصريح المودة ولا استجابوا بدير الخزاء ! فقد كان العقاب أليق شيء بالورز الذي اجترموه ومردوا عليه . أسس قد استوهوا سلطان الدين وبحلو بالماء فبلغ من شحهم به أنهم أنكروا حقوق الدين كده في سبيل حصة من الزكاة ، فجزأؤهم أن يشهدوا من بأس ذلك السلطان ما يعتبرون به ولا ينسونه مدى الحياة ، وأن يقدوا المال الذي من أحله سادروا إلى الفتنة واستَبَقُوا إلى العصيان فاستبيحت ديارهم ومراعيهم ومساقيتهم ووهبت عظايا للمجاهدين ، ولأن خالد في بعض المواقع وأبو بكر الوديع الرفيق لا يلين ، ووضع القصاص يمين مجاوروا مع الزكاة إلى قتل المسلمين بين ظهرانيهم ، فلم تأخذ فيهم هوانه بعد إصرارهم على العصيان واعتدائهم بالقتل وإعراضهم عن الصريح والدير .

جزاء حق لأنه من جنس العمل .

استهانة بقاتلها بأس ، وبخل بالمال يقابله ضياع للعمال ، ونفس بنفس ، ومجاهدون مخلصون يؤثرون الإيمان على عروض الدنيا أحداً بثأرهم من عصاة غادرين يؤثرون عروض الدنيا على الإيمان .

\*\*\*

قال أبو رجاء البصري ، « دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلاً يقتل رأس رجل ويقول له : أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا ، قلت من المقتل ومن المقتل ؟ قالوا . هو عمر يقتل رأس أبي بكر في قتال أهل الردة إذ منعوا الركاة حتى أتوا بها صاغرين »

وأبو رجاء من ثقات الرواة ، وكلا الرجلين جدير بما روى عنه من مودة وإكبار ، عمر جدير بإكبار أبي بكر ، وأبو بكر جدير بإكبار عمر إياه ، فالخبر صحيح أو هو كالصحيح ، إذ لم يكن فهو حري أن يكون

هالك ولا ريب أعظم رجلين واجها حروب الردة بين عظماء المسلمين في ذلك الحين .

وما كن اثنان قط أقرب منهما في القصد ، ولا كان اثنان قط منهما في الرأي بما أشارا أول الأمر في شأن أهل الردة .

ولا ينتهي العجب في موقفهما هذا عند فرط الاقتراب وفرط الابتعاد ، ولكنه عجب عاجب من غير ناحية فيه ، فإذا قُدر لهما أن يتفقا مقصداً ويختتما رأياً فقد كان المظنون أن يتجه عمر إلى جانب الشدة ، وأن ينحى أبو بكر إلى جانب اللين ، فجاء اختلافهما يومئذ على غير المظنون .

ومهما يكر من حق الدراسة التاريخية في هذا الموضوع فحق الدراسة لنفسية يساويه إن لم يزد عليه ، أو ربما كان حق الدراسة التاريخية مطلوباً لما ينتهي إليه من هذه العجيبة التي هي عاية العلم الذي نصيب إليه . إذ ليس للتاريخ ولا لغيره من العلوم غاية أشرف ولا أسمى من تعريف الإنسان بالإنسان .

كان عمر يقول لصاحبه . يا حليفة رسول الله ، تألف الناس وورفق بهم . . .  
 كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله ﷺ « أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا  
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ عَصِمَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ إِلَّا نَحَقَهُ ۚ » .  
 وكان أبو بكر يقول . « وَاللَّهِ لَأَقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، فَإِنَّ الرِّكَاعَ  
 حَقُّ الْمَالِ ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عِشَاءً <sup>(١)</sup> لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنَعِهَا » . . . ويملكه الغضب  
 فيصيح بصاحبه « يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، رَجَوْتَ نَصْرَتِكَ وَحَتَّتَنِي بِحَذْلَانِكَ ؟ أَجَبَّارُ  
 فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَحَوَارِ فِي الْإِسْلَامِ ؟ إِنَّهُ قَدْ انْقَطَعَ الْوَحْيُ وَتَمَّ الدِّينُ ، أَوْ يَنْقُصُ وَأَنَا  
 حَيٌّ ؟ » .

فكيف اختلف الصاحبان هذا الاختلاف ؟

أما أن يختلفا فلا عجب ، وأما أن يتصارحا بالاختلاف فلا عجب فيه كذلك .  
 وإنما العجب - عند النظرة الأولى - أن يجيء منهما الاختلاف على هذا  
 النحو الذي حالف المنظور كم حالف المعهود من طبائع الرجلين ، وهذا الذي  
 يستوقف النظر في طبيعة ما يستوقف الأنظار من حروب الردة ، ومن جميع ما  
 أعقب وفاة النبي ﷺ وقيام الخلافة الأولى .

وصفوة ما يقال في تفسير هذه العجيبة حقيقتان غير عجيبتين . أولاها أن  
 المعهود من أخلاق الإنسان ليس هو الإنسان كله ، بل في الإنسان شيء كثير مما  
 ليس يعهده الناس منه في عامة أحواله . والحقيقة الثانية أن الخلق المعهود قد  
 يفسر على وجوه كثيرة بمصها موافق للمبتدأ إلى الدمن وبعضها لا يوافق  
 المبتدأ إلى الدمن إلا بعد بعام واستقصاء .

فالشدة في أبي بكر موجودة في مناسباتها

واللين في عمر موجود يظهر في مناسباته .

وأولى المواقف أن يظهر فيها هذان الخلقان هو الموقف العصيب ، لأنه موقف  
 المراجعة الذي لا يذهب فيه الإنسان مع الخاطرة الأولى .

(١) لآتش من أولاد لمر .

والموقف العصيب هو الموقف الذى يراجع فيه الإنسان نفسه ويشرب إلى  
المكنون من أخلاقه فيصل منها إلى القرار الذى يخفى على الناس فى عامة  
الأحوال ولا يظهر لهم للوهلة الأولى فيشتد اللين ويلين الشديد ، أو يبدو كل  
منهما على الخالين بجميع ما فيه من شدة وبين .

ومن ثم يبدو ما لم يكن معهود فى عامة الأحوال .

على أن الموقف الذى رققه عمر فى حرب الردة معهود فيه إذا علمنا أن الخلق  
الإنسانى يفسر نفسه على عدة وجوه .

فعمر متصرف بالرأى .

وعمر جرىء فيما يرى .

وعمر وثيق الإيمان .

وعمر عادل متخرج فى علمه .

وهل كان موقفه من المردين حلواً من خلق من هذه الأخلاق ؟

ألم يكن فيه تصرف حين أراد أن يؤجل أمر الزكاة إلى يوم تتبدل فيه  
الأحوال ؟

ألم يكن فيه جرأة حين جهر بهذا رأى ولم يجعل بداراته ؟

ألم يكن فيه ثقة بأن المصير إلى ثبات الإسلام ، دون صل من ضل وزاغ فى  
الطريق من زاغ ؟

ألم يكن فيه تخرج من قصاص لم يتصح له حقه فيه حتى وصح له ذلك  
الحق فبطل الحرج ووافق صاحبه فى كل ما ارتأه ؟

هذا هو عمر المعهود ، ولكن بعد إتمام واستقصاء

أما أبو بكر المعهود فبحسب أننا قد بيناه فيما تقدم ، فيث أد ما صنع من  
قنال أهل الردة كان أقرب الأعمال إلى « الصديقيات » المطبوعة ، وإن بدا فى  
ال نظرة الأولى على غير ذلك ، ونحن لا نعلم الإنسان حقاً إذا فهمنا أنه يعيش  
حياته كلها ولا يأتى بشيء يحالف ما عهدها وانتظرناه ونحن لا نستعرب

الموقفين من أبى بكر وعمر إذا أحصرنا هذه الحقيقة التى هى أقمن شىء  
بالإحضار فى دراسة النفوس الإنسانية ، وبخاصة نفوس العظماء

وقد وضع كل الوضوح أن أبى بكر كان على صواب عظيم

ولكن لم يتضح كل الوضوح أن عمر كان على خطأ عظيم .

فنحن نحيل إلينا اليوم ، أنت لو كنا فى عصر الردة لوضح لنا يومئذ ما يتضح  
لنا اليوم ، ولم نتردد فى مناعة أبى بكر إلى القتال على يقين أنه الصواب كل  
الصواب أو أنه الواجب الذى لا مثوبة فيه

ولكننا لو حضرننا ذلك العصر لحاز كثيراً أن يميل منا الألوف - بل الألوف  
الألوف - إلى القول بالمسألة وإشراكه حتى حين ، وحين أن يعتقد منا الكثيرون  
أن التبرص بالمرتدين حتى يعود جيش أسامة ويثوبوا إلى الحسى أسلم وأحزم .  
هإن لم يثوبوا إلى الحسى فعدة القتال يومئذ أوفى وأعظم ، وقد يرجح بنا إلى  
هذا رأى أن الخطر من بكسة المنافقين فى مكة والمدينة غير بعيد ، وأن الخطر  
من غلبة المرتدين غير مستحيل ، وأن القبائل إن بقيت فى باديتها فأمرها  
مستدرك حتى تعالج بالهودة أو بالذير أو بالقتال أحر الأمر على ثقة من  
العلبة فيه .

ذلك جانر واضح الجوار ، وما كان كذلك فالقول به ليس بالخطأ العظيم ، وإن  
بيمت الحوادث أن القول بغيره كان صواباً جداً صواب

وإنما الخلاف فى أهل الردة من صروب الخلاف التى يعصها الفقهاء لأن  
الرأى وحده لا يكفى ولن يكفى يوماً لفض خلاف فى مسألة حاسمة من  
مسائل التاريخ .

وقد شاء القضاء أن يكون أبو بكر بطل الإسلام فى حروب الردة غير مدافع ،  
فهو صاحب الشرف الأول بين دوى الرأى ودوى العمل فى تلك الحروب وكأنما  
عمر قد وضع بشعبته شفاء المسلمين جمعاً على ذلك الرأس الخليل يوم أنحس  
عليه بالكرم والتفضل . وحسب المؤرخ والنفسانى عسرة أن يلحظ هذه الثروة  
النفسية فى صدر الدعوة الإسلامية : دعوة فيها لكل موقف أبطال ، وفى كل



بطل منها أهبة لكل حادث طارئ تختلف فيه الأهبة والآراء ، وفيهم جميعاً التعاون والإخلاص مختلفين ومتفقين .



وما انتهت حروب الردة حتى بدأت في تاريخ الإسلام مرحلة أخرى أجل وأعظم ، تصدى لها الصديق بذلك العزم الذي تصدى به لكل ما عقد النية عليه وأمن بصوبه إقدام كانه لا يعرف المسالة والتدبير ، ومبالاة وتدبير ، كأنهما لا يعرفان الإقدام .

كانت المرحلة الأولى تأمين الإسلام في عقر داره .

وكانت المرحلة الثانية تأمين الإسلام في حدوده وتخومه ، ودفع الخطر من هجوم الأعداء عليه .

ونقول تأمين الحدود لا يريد ، لأننا نعتقد أن الصديق عليه السلام أخذ في تسيير السعوث إلى حدود العراق والشام وهو على هذه البية دون بية المفتح بالسلاح ، وأنه عليه السلام قد التزم في سياسته الخارجية خطة النبي صلى الله عليه وسلم في تلك السياسة ، وهي الخطة التي ظهرت في بعثة نبوك ثم في بعثة أسامة بن زيد ، وأصدق ما يقل فيها أنها خطة لا هجوم فيها ولا تهجم ، ولا باعث لها إلا دفع الأذى ، وحماية الطريق ، والمهيئ لشر الدين بالحسنى والرهان إن يسر نشره بالحسنى والرهان ، فإن قامت العقبة من قوة طاعية تحول دون تلك على القوة الطاعية حساب تلك العقبة ، حيثما حان أوان الحساب .

وفي غزوة تبوك - كما قلنا في عقريه محمد - « عاد الجيش الإسلامي أدراجه بعد أن أيقن بإصرار الروم عن القتال في تلك السنة ، وكان قد سرى إلى النبي نبا أنهم يعيثون جيوشهم على حدود البلاد العربية ، فلما عدلوا عبد الجيش الإسلامي عن الغزوة على شرط ما تكلف من الجهد والنفقة في تجهيزه وسفره »

أو كما قلنا في عقريه عمر إن دولة الروم كانت ترسل السعوث إلى تخوم الجزيرة وتهيج الفمائل لحرب المسلمين من عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها ، يدل عليه كلام عمر وهو

يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول . . . وكما تحدثنا أن غسان تَنْتعل النعال لعزونا ، فنزل صاحبي يوم نوبته مرجع عشاء فضرب بابي شديداً وقال أئثم هو ! ففرغت وخرجت إليه ، وقال حدث أمر عظيم . . . قلت : ما هو ؟ أ جاءت غسان ؟ قال - لا . بل أعظم منه وأطول . طلق النبي ﷺ نسائه ! .

وهو حديث يتبين منه مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار

فلما تولى الصديق رضي الله عنه الخلافة أبعث بعثة أسامة التي يصح أن تسمى بلعة العصر الحاصر بعثة تأديبية لردع القبائل التي تعيث في الطريق بين الحجارة والشام بأمر لتلك الطريق وتوطيداً لهيبة الإسلام في نفوس تلك القبائل . فلم تجاور البعثة هذا العرض المحدود ولم تلبث أن قفلت إلى المدينة بعد أربعين يوماً في قون بعض المؤرخين وسبعين في قول آخرين .

أما عروة فارس فقد كانت استطراداً لحروب الردة في أطراف البحرين ، وكانت القبائل التي تدين لسلطان فارس توالى الإغارة على أرض المسلمين فيدفعونها ويقتصبون منها ويتعقبونها في بلادها ، وكان الصديق رضي الله عنه يجهل اسم القائد المقدم الذي كان يتولى الدفاع والتعقيب في تلك الأسحاء ، فسأل عنه في شيء من العجب . من هذا الذي تأتينا وقائعه قل معرفة سبه ؟ فعرفه به قيس بن عاصم قائلاً هذا رجل غير حامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ظليل العماد : هذا المنثى بن حارثة الشيباني !

فكان هذا الاستطراد في حرب الردة بداءة الاشتباك بفارس ومن والاها من قبائل البحرين والسَّواد ، ومضت الحوادث شوطاً قبل أن تنقلب إلى الحرب الضروس بين العرب وفارس في أوسع نطاق ، فلما أرسل الصديق خالداً لنبذة المنثى أمره أن « يتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم » . وتقدم خالد في تأمير الطريق فصالح أهل الحيرة وعيبرهم على « أن لا يحلفوا ولا يعينوا كافرين على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يذلوهم على عورات المسلمين . فإن هم حالفوهم فلا ذمة ولا أمان وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدو، إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد ، وعلى المسلمين الميع لهم . . . وأما رجل منهم

وُجد عليه شيء من زى الحرب سئل عن ليسه ذلك ، فإن جاء منه مخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب . . . .

فمن طلائع الغزوة الفارسية يلوح للمتتبع أنها غزوة فرصتها الحوادث على الخليفة الأول ، فاستجاب لها بما ينبغي أن يستجيب ، وقبيل المناحزة حين لم يكن له من قولها ماصر ولا متحول ، ولم ينس مع هذا أن يتألف الأمم ويسالم الأمراء ويدعوهم إلى السلام والإسلام ، ويُنشِئ لهم من يعلمهم ما هو وصف الدين الذي يدعوهم إليه . فإن أصابوا إليه فلا حرب ولا عدا . وإن جردوا له السيف رجع معهم إلى حكمه الذي نزلوا عليه .

\*\*\*

وهكذا قدر للخليفة لأول أن تتوطد على يديه دعائم الدولة الإسلامية الناشئة في سياستها الداخلية وسياستها الخارجية ، فما صنعها فقد استمر فيه على خطة لسياسة ، وما صنعها الذين لحقوا به فإنما هو نتيجة لازمة لما بدأ فيه

وشاء الله أن يشهد سداد رأيه بعينه وهو خط لا يتاح للكثيرين من يفتتحون الدول العظام ولا سيما الشيوخ . فشهد سداد رأيه فيما تم من أعماله وفيما هو أحد في التمام ، وفارق الدنيا وهو يعلم أنه قارن التوفيق في حرب فارس كما قارنه في حرب الردة ، وليس بينهما تفاوت في الإقدام ولا في ثقة الإيمان

ويحق لمن يؤرخ تلك الحوادث ، ولمن يبحث في صفات الصديق ومناقبه ، أن يسأل ما مبع تلك الثقة من الإيمان ؟ وما مبعها من الحساب ؟

إنه سير البعوث لإحصاء الخربة العربية وهي ترج رجتها الكبرى وليس معه من الجند إلا قلة محدودة من أهل تلك الجزيرة .

وإنه سير البعوث إلى تخوم فارس والروم وليس معه من قوة غير المسلمين من العرب ، مستثنى منهم في أول الأمر كل من تابوا بعد ردة ، وإنه لتفاوت بين الفوتين أعظم من التفاوت بين حمش الخليفة وجيوش المرتدين .

أكانت مجارفة ؟

أفكانت يقيناً لا تصححه الروية وهي في الدين الإسلامي مطلوبة مع اليقين؟  
لا ريب أن اليقين كان أكبر العدد التي تقدّم بها الصديق في بعوث الردة وفي  
بعوث فارس والروم على السواء

ولا ريب أنه أقصى المسلمين الذين نابوا بعد ردة فلم يلحقهم بالجند الموجهين  
إلى تحوم الدولتين ، لأنه علم أن العدة الكبرى هي أولئك الحد هي عدة اليقين  
الذي لا يتزعزع ولا يدركه الوهن والطمع

ولا ريب أن يقين الصديق بنصرة الإسلام على الدين كله في يوم من الأيام  
قد كان أقوى يقين سكن في قلب إنسان أو سكن إليه قلب إنسان  
فكل وعد من وعود القرآن قد كان عنده حقيقة عيان ، بل أمكن من حقيقة  
العيان .

وكل كلمة سمعها من النبي بحبر من أخبار العد المجهول فهي عنده شاهد  
على شواهد الحاضر المأموس باليدين

نزل القرآن الكريم بعبارة الروم على الفرس في بصع سين فذهب الصديق إلى  
مشرقي فريش يُكبتهم بنبأ هذا النصر العريض لأنهم كرهوه كراهة منهم في كل  
أهل كتاب ، وأحسوا نصر فارس حبةً منهم لكل عابد وثن ، وقال لهم ليظهر  
الروم على فارس ' أحسروا بذلك نبيا . . فصاح به أني بن حلف الجُمُحى  
كذبت يا أبا فضيل ! قال الصديق أنت أكذب يا عدو الله ، ودعاه أبي أن  
يراهنه على عشر فلائص فعاد إليه يقول . بل على مائة إلى تسع سنين لأنه  
سمع وعُد القرآن ، ووعد القرآن حقيقة عيان ، بل أمكن من حقيقة العيان .

ولما تعقب جاسوس لمشركين سُرّاقة بن جعثم ركب النبي ﷺ في الهجرة  
سمعه الصديق يقول لسُرّاقة كيف بك إذا لبست سوارى كسرى ؟

لما شكك الصديق أن الإسلام غالب الأكاسرة في يوم من الأيام ، وأنه  
منصور على الدين كله كما جاء في الكتاب وفي حديث صديقه الرسول  
الأمين .

ذلك كله لا ريب فيه .

سَيُنْصَرُ الْإِسْلَامُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ فِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ذَلِكَ حَسْرَ عِيَانٍ لِمَنْ  
أَمَكَّنَ مِنْ حَسْرِ الْعِيَانِ .

ولكن أى يوم ! ومتى يحين الأوان ؟

هنا تبدأ الرواية إلى جباب اليقين ، بل تحب الرواية على ولى الأمر هي  
الإسلام كما يجب اليقين .

ونعتقد نحن أن الخليفة الأول قد أعطى الرواية حقها كما أعطى اليقين حقه ،  
فما كان أبو بكر بالرحل الذى يسى الخيطة كلما وجبت الخيطة على ولى  
الأمر ، وهى هنا كأوجب ما تكون .

وحسب من ذلك حيطته فى حراسة المدينة ونسيت الحمد بالمسجد حين تجرد  
لكفاح أهل الردة ، ثم وصيته لخالد بن الوليد - وقد علم حنكته فى فنون الحرب  
وقدرته على قيادة الجيوش - فلم يُنسه هذا العلم أن يروده بالنصح حين خرج  
حرب المرتدين ، فيدير هذا النصيح كله على الخيطة واليقظة كما قال من كلام  
رصين وجيز : « إذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة فلانى لا آمن  
عليك الجولة ، واستظهر بأفراد ، وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك  
النازل ، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة واحرص على الموت توهب لك  
الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من الهبات فإن فى  
العرب غرة » وإذا لقيت أسداً وغطسان فبعضهم لك ، وبعضهم عليك ،  
وبعضهم لا عليك ولا لك ، متربص دائرة السوء ينتظر لمن تكون الدبرة فيميل  
مع من تكون له العلبة ، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة ، فاستعن بالله  
على قتالهم ، فإنه يلغى أنهم رجعوا بأسرهم ، فإن كفك الله الصاحبة فامض  
إلى أهل اليمامة ، سر على بركة الله » .

وأدّل من هذه الوصية على الخيطة والاحتراس فى كفاح الأحاب وصيته  
لبريد بن أبي سفيان فى فتوح الشام حين يقول : « . . وإذا قدم عليك رسل  
عدوك فأكرمهم وأقبل تُشهم حتى يخرجوا من عسكريك وهم جاهلون به ، ولا  
تُرِيْشهم فيروا خللك ويعلموا حلمك ، وأرلهم من ثروة عسكريك ، وامنع من قبلك  
من محادثتهم ، وكن أنت المتولى لكلامهم ، ولا تجعل شرك كعلانيتك فيحتلط

أمرك . وأكثر حرسك ، وبددهم في عسكريك ، وأكثر مفاجأتهم في محارستهم  
بعير عثم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن مختبرسه فأحسن أدبه وعاقبه في  
غير إفراط ، وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها  
أسرها لقربها من النهار . . . » .

ولم يسقط قط ما بين حنده وجند العدو الأجبي من فروق العدة . وكان  
يعمل في تدارك هذا الفرق ورأب هذا الصدع ما استطاع مذهب يوماً يتفقد  
جنده الذين هموا بالخروج لغزو الشام فلم تعجبه عدتهم وسأل من حوله : ما  
ترون في هؤلاء إن أرسلتهم إلى الشام في هذه العدة ؟ فقال عمر . ما أرضى هذه  
العدة لجموع بني الأصفر . وقال بقية أصحابه نحن نرى ما رأى عمر ، فكذب  
إلى أهل اليمن يستكمل العدة ويستنهضهم إلى الجهاد ليخفوا إليه بما يسد هذا  
النقص من جند وسلاح .

فالرجل الذي لا نفوته فائنة من شأن القبائل التي يرسل إليها بعوثه ،  
والرجل الذي يختار القائد فيحسن اختياره ثم لا ينسى مع ذلك وصيته  
وتحذيره وإتمام عدته بما يقارب عدة عدوه ، والرجل الذي يقرن ذلك كله  
بالحيطة في مدينته بما في وسعه - ليس هو الرجل الذي يُزحى البعث إلى  
تحوم فارس ولم يأخذ للأمر مثل هذه الحيطة ولم يعمل فيه مثل هذه الروية ،  
وليس بالذي يجازف وله مندوحة عن المجازفة من إرحاء أو مسالة إلى حين  
ولما يرجو العلبة بالقليل على الكثير لأنه يعتمد على « عدة الإيمان » ويعلم  
كما قال ليزيد بن أبي سفيان . « قد نبأنا الله أن الفتن القليلة بما تلعب الفتن  
الكثيرة بإذن الله ، وأنا مع ذلك معكم بالرحال في أثر الرجل حتى تكتفروا ولا  
تحتاجوا إلى زيادة إنسان »

وانت لنعم اليوم أن الصديق لم يجازف قط بتجريد البعث إلى تحوم فارس  
والروم ، ونعم أن عوامل النصر كانت كلها أو معظمها في صفوه ، وأن عوامل  
الهزيمة كانت كلها أو معظمها في صفوف أعدائه .

نعلم اليوم أن الفرس قد انهزموا لأنهم كانوا يدمون العرب عن دولة حطمتها  
الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وباحت نارها التي تعبدتها في قلوب أهلها

فقبل أن تبوخ في معاندها ومشاعلها ، وشع فيهم الخوف من الثبات في القتال حتى قيدوا بعضهم إلى بعض بالسلاسل ليحولوا بين هارب وهربه ، وقلت الدربة في قادتهم حتى تحيروا أسوأ المواقع وأسوأ الأوقات للهجوم في معارك كثيرة .

ونعلم أن الروم قد هزموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطمتها ما قد حطم المرس من الحروب الخارجية والغتن الداخلية ، وباحت عقائدها في صدورهم لصرط ما أرثها من الجدل العقيم والجدل الدميم ، واستكاست إلى الذلة زمناً حتى رضيت بالجزية تؤديها لرابرة الهون والأبارة ، واشتملت على أم كثيرة تعاديتها وتترىص بها الدوائر كلما طمع الطامعون فيها

نعلم اليوم ذلك من الواقع الذي وقع وبطل الشك فيه ، ومن التاريخ الذي تفتحت أمامنا صفحاته وقد زال عنها الحجاب

ولكن الصديق لم يكن قد رأى هذا الذي رأياه ، ولا تصفح هذا الذي تصفحناه ، فهل معنى ذلك أنه أقدم بغير علم ، وأنه سسى ما طبع عليه من الخيطة والحرم ، وأنه سسى عن واجب الروية وقد تهيأ له واجب اليقين ؟

لا فإن الذي كان يعلمه الصديق قد كان يكفيه ويغنيه عن هذا الذي علمناه . كان يعلم أن المرس قد خسروا قبل الإسلام وقعة دى قار وهم أقوى صولة والعرب أصعب شأناً من شأنهم بعد الإسلام .

وكان يعلم أن الروم قد صبروا على بعثتين عربيتين بلغتا من بلادهم إلى التحوم وأعلنت في بعض الأطراف ثم هزمت همتهم عن مقابلة ذلك بالقمع والقصاص السريع

وكان يعلم أن العرب إن طلسو الدّين حاربوا صادقين في القتال ، وإن طلسوا الدنيا حاربوا صادقين في القتال ، وأنهم موعودون بالنصر ومؤمنون بصدق الوعد ومقتلون بنفوس تحب الموت كما يحب أعداؤها الحياة ، وأنهم جفاف لا تثقلهم العدد محميون من وراء ظهورهم بالصحراء إن وجبت الرجعة ، مُقدمون على أرض حيرتها طلائعهم وهوت عليه خطبهم ، وأبلعتهم من أحبار قناتها ومقاسدها ما يملئ له في الإيمان بالقدرة عليها

فإذا علم هذا فهو حسه من الروية مقروناً بذلك اليقين الذى لرسها عن كل روية لكان له بعض العذر ، وكان به جُل العناء .

\*\*\*

وفى أقل من ثلاث سنوات قصار انجز ما أنجز من تلك المآثر الطوال . وفى أقل من ثلاث سنوات أنفذ بعثة أسامة وفى سبيلها ما فيه من صعاب ، وقَمَعَ الردّة وحولها ما حولها من خطر ، ووطى حدود فارس والروم ولها من هبة ومنعة ثلاثه أركان للدولة الإسلامية لم يكن ليقوم لها ركن قبل أن تقوم ، ولو أنها حُست لثلاثين سنة - ولم تحسب لثلاث سنوات قصار - لجُللتها جميعاً بالثناء والفتخار

ولم يتسع الزمن لإقامة نظام للدولة الإسلامية فى عهد أبى بكر على مثال النظم السياسية والإدارية التى تقام للدول الكبار فى حداثة شأتها . أولعل المسألة هنا ليست مسألة اتساع الوقت وضيقه فى عهد الخلافة الأولى ، ولكنها مسألة الحاجة إلى تلك النظم وقلة الحاجة إليها ، وفى عهد الخليفة الأول بعد النبى ﷺ لم يطرأ على إدارة الدولة الإسلامية ما يدعو إلى نظام جديد غير النظام الذى كانت تجرى عليه فى عهده ﷺ . لأن الجزيرة العربية عادت بعد حروب الردة إلى مثل ما كانت عليه فى أيام النبوة ، ولأن الأرجاء الأجنبية التى زحفت عليها بعوث المسلمين لم تزل إلى آخر خلافة الصديق فى دور العزو والفتح ولم تبلع بعد إلى دور التوطيد والتنظيم ، فكل ما جرى عليه النظام فى أيام السوة فقد كان صالحاً للاتباع فى أيام الخلافة الأولى ، وهما تتجلى حكمة النبى ﷺ فى إسماء الخلافة الأولى إلى أصلح الناس متابعه العهد النبوى على حاله الذى كان عليه . حتى إذا حاد وقت التوسع والتصرف وجد الوقت من هو أصلح وأقدر عليه ، وكأنه كان معروف من قبل موكولاً إلى حينه يشربه ويستدعيه ، ولن يكون إلا عمر بن الخطاب كما سماء ﷺ حيث قال : « أريت فى المنام أنى أرى بدلو بكرة على قليب »<sup>(١)</sup> فجاء أبو بكر فنزع دنوباً<sup>(٢)</sup> أو دوبيين نزعاً ضعيفاً ، والله يعفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غريباً ، فم أر عقرياً يفرى فريه حتى روى الناس وصرخوا يعطى<sup>(٣)</sup> »

\*\*\*

(٣) مرتبط الإبل حول الماء

(٢) دنوباً .

(١) بشر .



وعلى هذا يمكن أن يقال إن الأداة الحكومية - أو الإدارية - لم تكن في عهد الصديق محتاجة إلى نظام غير النظام الذي اتخذه النبي ﷺ ، واكتفى به في إدارة الشئون العامة بمكة والمدينة والجزيرة العربية ، مع التعديل الذي اقتضاه توزيع العمل وتفرقة العبء الكبير بعد وفاة النبي ، وغياب المرجع الأعلى الذي ترتفع إليه جميع الأمور .

فتولى بيت المال رجل سماه النبي ﷺ « أمير الأمة » وهو أبو عبيدة بن الجراح ، وتولى القصاء رجل لم يشتهر أحد بالعدل اشتهاره وهو عمر بن الخطاب ، وتولى الكتابة كاتب السبي ﷺ ريد بن ثابت ، وكاتب ولاياتهم أقرب إلى الارتجال والتداول منها إلى التكليف الدائم والعمل المرسوم .

وكان قادة الجند يفتحون البلدان ويقيمون فيها الولاء والقضاة على النحو الذي ألفوه في الجزيرة العربية ، ومن عرصت له مشكلة من مشكلات الإدارة في بند أجمبي تركها على النحو الذي كان مألوفاً في ذلك البلد ، إلا ما كان فيه خلاف للدين .

وكل من ولاه النبي ﷺ في حياته عملاً من الأعمال العامة أبقاه الصديق في مكانه ، أو رده إليه إن كان قد تحول عنه ، أو استأذنه في تحويله عنه إن بدا له من مصلحة المسلمين ما أوجب تحويله ، كما كتب إلى عمرو بن العاص « إنى كنت قد رددت إلى العمل الذي كان رسول الله ﷺ ولأخيه مرة وسماه لك أخرى : مبعثك إلى عمان ، إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ ، فقد وليته ثم وليته ، وقد أحببت - أبا عبد الله - أن أفرعك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه ، إلا أن يكون الذي أنت فيه أحب إليك » .

وأشار عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد بعد أن قتل مالك بن نويرة على غير بيئة قاطعة في رأى عمر ، وتزوج بامرأته في ميدان القتال وهو أمر تكرهه العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام فاختلف الفاروق والصديق احتلافهما الذي يرجع من كل منهما إلى أصل أصيل في الطباع والنظر إلى الأشياء والرجال والفاروق وديده أن يوقع الخزاء بمن يستحقه كائنًا من كان ، والصديق وديده أن يتألف ويستبقى ولا يتدنى شيئاً يعير سابقه ، وساعده على إبقاء خالد سابقة

للنبي ﷺ معه في حرب بني جذيمة . فإنه تعجل يومئذ في قتل بعض الأسرى فوداهم النبي ﷺ حتى رد إليهم مئيلة الكلب ، ورفع يديه يبراً إلى الله عما صنع خالد ، ولكنه لم يعرله من الإمرة أو القيادة فكانت هذه السابقة أمام الصديق يوم لأم خالداً على ما بدر عنه ثم أبواه .

وما من شيء يدل على تكافؤ العظمة بين الرحلين كما تدل عليه الحجة التي يعتمد عليها كل منهما حين يخلفان . فما اختلفا قط بحجة تضعف من ناحية وحجة تقوى من الناحية الأخرى ، بل كان لكل منهما حجة الناهضة فيما يجح إليه ، وإن كانت هذه حجة ابتداء ، وهذه حجة ابتداء

جاءت العنانم والأنفال إلى بيت المال لتوزيعها بين من يستحقونها من الرجال والنساء فكان القماروق يحنح إلى تمييز الأصبة على حسب المآثر والأقدار ، وحجته أنه لا يسوي بين من قاتل رسول الله ومن قاتل مع رسول الله ، وكان الصديق يجح إلى التسوية بين الأصبة بغير تمييز ، وحجته أن الأعمال شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة .

وما اختلفت حجة الابتداء وحجة الاقتداء - أو ترك الابتداء - كما اختلفت هاتان الحجتان على مساواة في الهووس والإقناع

وقد جرى الصديق في سياسة الدولة على سنة النبي ﷺ من مشاورة دوى الرأي والثقة في كل ما جنّ أو دعا إلى السؤال ، ولكنه كان يستقل بالرأى حين تكون السبعة فيه تبعه دون غيره ، كما استقل بالرأى في اختيار الخليفة من بعده ، واستقام له بعد المشاورة والروية أن يعهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب .

فحلاصة ما يقال في سياسة الصديق للدولة الإسلامية على عهده أنها كانت سياسة المقتدى المقتدر الفعال الذي يصعق إلى الصبح بمن يرون التصرف والتمييز والابتداء ، ولم يكن قط مقتدياً على صعب وتواكل والقاء بالتبعة على غيره ، بل ربما اقتدى ليعمل ما هو أصعب وأعضل وأبهض بالتبعة من أعمال المنصرفين .



وإذا حُسِبت لأبي بكر بعوث أسامة وبعوث الردة وبعوث فارس والروم ، فلا بد أن يحسب له عمل آخر لا يدخل في باب البعث ، ولكنه أقوم للدولة الإسلامية من جميع هذه البعث ، لأنه دستور هذه الأمة التي لم تقم لها قائمة بغيره ، وهو جمع القرآن

وقد كانت سُنَّتُه في جمع القرآن سسته الواضحة التي لا مَحِيدَ عنها : وهي سنة الاقتداء والإصغاء إلى القوم من الأراء فلما مات من مات من حَفَاط القرآن في حروب الردة وحيث على من بقي منهم أن تأتي عديهم حروب فارس والروم كَجُر الأمر على عمر فأشار على الخليفة بجمع القرآن ، فأحجم بادئ الرأي ، وهو يقول . كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ ثم اشرح صدره لما أشار به عمر فتجرد له بجميع عزمه ، وأنقضت خلافته على القول الأشهر والقرآن مجموع مفروغ من كتابته في المصاحف كما نقرؤه الآن

وكانت الدولة الإسلامية بهذه المشاية أمانة أعظم بها من أمانة تنوء بها كواهل الرجال يقول من شاء ما شاء في دراسة هذه الفترة الخالدة ، إلا شيئاً واحداً لا يقول عارف بما يقول ، وهو أن أحداً كان يلقى تلك الأمانة خيراً من تلقيه أو يسلمها خيراً من إسلامه ، منذ أن تلقاها بيد من البى الله حتى أسلمها بيد إلى عمر بن الخطاب .



## الصديق والحكومة العصرية

قلنا في الفصل السابق عن الصديق والدولة الإسلامية إن الحاجة لم تدع في عهده إلى نظام غير النظام الذي سسه النبي ﷺ لسياسة الجزيرة العربية ، وإنه ﷺ قد تولى ولما تستقر الأمور في البلاد المفتوحة على حال تدعو إلى اتباع نظام شامل لكل قطر من أقطار الدولة الإسلامية .

إلا أن الصديق كان أول خبيمة قام بالحكم الإسلامي بعد عهد النبوة فمن الطبيعي أن نسأل عن نوع الحكم الذي توصف به حكومته وحكومة الخلفاء من بعده ، وأن نعرف وجه المشابهة بين تلك الحكومة وحكومات العصر التي قامت على المبادئ الدستورية الحديثة .

فأي حكومة هي حكومة الصديق أو حكومة الإسلام في عهده ؟ وأي العناوين هو أقرب إليها من عناوين الحكم في هذا العصر الحديث ؟

الديمقراطية - ولا ريب هي أقرب النظم إلى نظام الحكم في عهد الصديق . ولكن الديمقراطية أشكال تختلف في العصر الواحد بين أمة وأمة ، ولها قواعد دستورية ومقدمات تاريخية من العسير أن يوحد بينها وبين قواعد الخلافة ومقدماتها ، ومن السهل جداً مع هذا أن يصدف عن هذا التوحيد دون أن تُغض من نوع الحكومة في صدر الإسلام .

فليس من المحقق أن حكومة الإسلام يومئذ توصف بالديمقراطية على المعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة في هذه الأيام

ولكن من المحقق أن الحكومة الإسلامية على النحو الذي جاء به القرآن الكريم واتفق عليه المسلمون كانت بعيدة كل البعد من جميع أنواع الحكومة المعيبة أو جميع المبادئ التي تستند في تقرير حكم الشعوب على أساس معيب .

فإذا كانت حكومة الخلافة لم تقرر الديمقراطية على أساسها العصري المعروف

بينما هي - بلا ريب - قد أبعدت مبادئ الأوبوقراطية ، ومبادئ الشيوقراطية ، ومبادئ الأليجاركية ، ومبادئ حكومة العوعاء ، وسائر المبادئ التي لا تستقيم مع حرية الفرد ومع الفطرة السليمة .

فالأوتوقراطية وهي حكومة الفرد المستبد ممنوعة في الإسلام ؛ لأن القرآن الكريم يأمر النبي أن يشاورهم في الأمر وينص على أن : ﴿ وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ... ﴾ .

وإذا كان النبي الذي يتلقى الوحي الإلهي لا يجزى عن مشاورة أتباعه والرجوع إلى رأيهم في سياسته ، فغيره من ولاة الأمر أولى أن يتقيد بالشورى ويتجنب حكومة الطغیان .

والشيوقراطية وهي الحكومة التي يدعى فيها الحاكمون صفة إلهية ممنوعة كذلك في الإسلام ، لأن القرآن الكريم يعلم المسلمين أن النبي بشر مثلهم ويُظَلُّ الكهانة والوساطة بين الإنسان وربه ، وقد نهى النبي ولاة وأمرء حيشه أن يُرموا العهد باسم الله أو باسم رسوله ، فكان يقول لمن ولاه : « ... لا تجعل لهم دمة الله ولا دمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تخفروا دمكم ودم أصحابكم أهون من أن تخفروا دمة الله وذمة رسوله » .

ولما قيل للصديق يا خليفة الله ، أنكر ذلك وقال :

إنما أنا خليفة رسول الله ، وسأل الناس أن يُقَوِّمُوهُ ويرشدوه .

والأليجاركية وهي حكومة الفئة القليلة من الأعيان والسروات ممنوعة كذلك من المسلمين ، لأن بيعة الخاصة في الإسلام لا تُغنى عن بيعة العامة وليس في الإسلام سيادة سب كما جاء في الحديث الشريف :

« اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه رية » .

وحكومة الأهواء سواء كانت أهواء الوحوش أو أهواء السواد ممنوعة كما منعت الحكومات التي أسلفناها .

فليست أهواء المحكومين مُعينة عن أصول الحق والعدل ودستور الشريعة والنظام ، وفى ذلك يقول القرآن الكريم :

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَظَئٍ مِّنْكُمْ شُرْعَةٌ وَمِنْهَا جُنَاحٌ ۖ ﴾ .

وإذا امتنعت كل هذه المبادئ المعيبة فى حكم الناس فقد صلحت الحكومة بما شئت من الصفات والعناوين . إذ الحكومة على تعدد أنواعها إنما تنحصر فى نوعين اثنين هما النوعان اللذان فرق بينهما أرسطو فى أصول السياسة : أو هما الحكومة الصالحة لمصلحة المحكومين ، والحكومة الفاسدة لمصلحة الحاكمين . وكل ما عدا ذلك من الصفات والعناوين فهو داخل فى أحد هذين النوعين .

فإذا لم تكن حكومة الصديق ديمقراطية حديثة فالديمقراطية لا تتوخى من الحكم غاية أفضل من العاية التى تتوخاها حكومة الخلافة ، ولا تبعد من المبادئ شيئاً غير المبادئ التى أبعدها الحكومة الإسلامية بما نص عليه القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو اتفاق المسلمين .

\*\*\*

أما الحكومة من حيث علاقتها بشخص الخليفة وحلائقه الشخصية فخلائق أبى بكر التى عرفناه دليل عليها عفة وصدق ودعة وحرم وأناة وكيس ، وكل ما يعهده من هذه الخلائق فهو معهود من الخليفة الأول فى جميع ما حكم به وتولاه

ولى الخلافة فأصبح ذات يوم وعلى ساعده أبراد يذهب بها إلى السوق ، فلقبه عمر فسأله :

أين تريد ؟

قال : إلى السوق .

قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين .

قال : فمن أين أطعم عيالى ؟

فأشار عليه أن يذهب إلى أبي عبيدة أمين بيت المال ليفرض له قوته وقوت عياله . فقرضت له ستة آلاف درهم في السنة

وكان يقيم بالسنع على مقربة من المدينة فتعود أن يحلب للضعفاء أعمامهم كرمًا منه ورفقًا بهم . فسمع جارية تقول بعد ما بيعته بالخلافة :  
اليوم لا تحلب لنا معانج دار .

فسمعها فقال : بلى لعمرى لأحلبنها لكم

فكان يحلبها وربما سأل صاحبها : يا حارية ! أنخبين أن أرغى لك أو أصرح ؟  
فربما قالت : أرغ ، وربما قالت : صرح فأى ذلك قالته فعل .

ثم نكاثرت أعمال الحكومة فانسفل إلى المدينة ورأى أن يعين نفسه على الشقة بالتجارة حيثما استطاعها . فلما حضرته الوفاة أمر أن يُحصى ما أخذه من بيت المال فيُرد من ماله وأرضه وقال لعائشة رضى الله عنها

« فإذا أنا مت فردى إليهم صحمتهم وعبيدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما فوقى اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتى اتقيت بها نزع الأرض . كان حشوها قطع السعف » .

وما روى عن عفته وزهده أن امرأته أشتت حلوكا واستفضلت من نفقتها في عدة أيام ما تشتريه به ، فلما عم ذلك رد الدراهمات إلى بيت المال وأسقط من نفقته كل يوم ما فصل منها لثمن الحلوى .

وما كان صديق السبى وصفيه ليبيع لنفسه ما لم يبيحه السبى وإن استطاع من حاصة ماله ، فضلا عن بيت مال المسلمين .

وكان حكمه إلى الرفق والأناة والكياسة ، غير غافل عن اليقظة والحزم حيثما وجبت يقظة وحزم .

فكان يتقصى أخبار الولاة ويسأل الرعية : هل من أحد يتشكى ظُلَامة ؟ فإن وجد ظُلَامة أصف المظلوم على سنته التى استنها ، وهى أن الكبير صغير حتى يأخذ الحق منه .



وكان يوصي فائده « ألا تفعل عن أهل عسكري فتفسده ، ولا تتجسس عليهم فتعصحبهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلايتهم »  
أو يقول : اقبل علايتهم وكلهم إلى سرائرهم ، وبأمره مع ذلك ألا يغفل عن استطلاع أمرهم لإصلاح ما فسد منه

والنبي كياسته يرجع الفصل في تعليل مبدأ من أسلم مبادئ القصاص قديمها وحديثها ، أخذ به رجال المسلمين في قصائهم واتبعته الحكومات العصرية جميعاً في قضائها ، ومعنى به لمبدأ الذي يحرم على القاضي أن يحكم بعلمه في إقامة الحدود ، وقد أثره الصديق عليه السلام فقال :

« لو رأيت رجلاً على حدٍّ من حدود الله لم أخذه حتى يكون معي شاهد غيري »

\*\*\*

وما حفظت له وصية قط إلا ظهر فيها حُفاه العالين ، الكياسة والصدق ، فإذا حذر الولاة أن يكشفوا عن أسرار الناس لم ينس قط تحذيرهم من إخلاف الوعد والوعيد ، وجماع ذلك قوله لعكرمة « مهما قلت إلى فاعل فافعله ، ولا تجعل قولك لغواً هي عقوبة ولا عفو ، ولا ترج إذا أمنت ولا تخاف إذا خوئت ، ولكن انظر ماذا تقول وما تقول ، ولا تعدد معصية بأكثر من عقوبتها ، فإن فعلت أمنت وإن تركت كذبت » .

حرى حكمه كله على هذه السنة من الرفق والصدق ومن اليقظة والحزم ، ومن الكيس والفطنة ، لم تؤحد عليه إلا بادرة واحدة هي إحراقه المجاعة في ساعة من ساعات الخلة التي كان يغالبها جهده ، حتى غلبته مرة في عقاب هذا اللص الخائل السفاح

وكان الفحاة هذا أو إلياس بن عبد اليل - قد جاء الصديق فاستعانه بالسلاح لقتال المرتدين ، فلما أعصاه السلاح أخذه ليقطع الطريق ويعيث في الأرض ويشح فيمن صاده فقتلاً ونهاً من المسلمين كان أو المرتدين ، وتفاقم شره وعظم بنييه حتى وقع في الأسر وجيء به إلى الخليفة وهو يرى أنه قد

استحق جراء أكبر من جراء القتل لأن حرمه أكبر من حرم قاتل . وقد استشاره هذا الرجل بكل ما يثيره ويذهب بحلمه ورفقه : استشاره بكذبه عليه وهو يمقت الكذب ، واستشاره بخذاعه إياه وهو يكره أن يعيث به أحد ، واستشاره بتسخيره في قتل المسلمين بما أعطاه من سلاح وعدة ، فأكثر جرمه بمقدار ما يكسر عنه الصدق والكرامة والعيرة على دماء المسلمين ، وأمر به أن يلقي في نار توفد به في مُصلى البقيع .

خطأ ولا ريب ..

ولكنه خطأ له عذره ، وخطأ هي رأى أنى بكر نفسه قد ندم عليه بعد هورة الغضب التى ذهبت بحلمه ورفقه . وقد طل يذكر هذا الخطأ وبأسف له إلى أن قال وهو يحود بنفسه :

« وددت أنى لم أكن حرقت المعجزة السلمى وأنى كنت قتلتته سريحا أو خلطته نحيحا ... » .

ومهما يكن من رأى الأقدمين أو المحدثين هي هذا الحادث فالخطأ الذى لا جدال فيه أن ندين به الإسلام كله أو ندين به أبى بكر كله فى جميع حالاته ففى كل عصر تقع احوادث من أشباه هذا الحادث المفرد ولا تحسب على دين أو دولة سواء فى العصر القديم أو العصر الحديث

إنما يحسب على الإسلام ما هو قاعدة من قواعده ، ويحسب على أبى بكر ما هو سنة مطردة فى حكومته ، وما عدا ذلك فهو نكوة عارضة عذره فيها فداحة الجرم وشميعه فيها طون الندم ، فمن علا فى المؤاحدة حتى فتح من هذا الحادث المفرد بابا للمقارنة بين عصر وعصر ، وبين حاكم وحاكم فقد أصاب إلى سوء النية جهله بالعصر الحديث .

وعلى هذا يثبت من شاء هذا الحادث للحكومة أبى بكر ويحذفه من شاء منها ، فلا ترال على الحالىين قدوة لأصلح الحكومات العصرية فى مزيتين عامعتين : حداثهما لإبطال المبادئ الصارة التى تفسد الحكومة على اختلاف صفاتها وعدويناها ودعاوها ، والثانية تقرير العاية التى لا تفضلها غاية الحكومة إنسانية : وهى حرية الفرد ومصلحة الحكوميين .

## الصديق والنبي وصعبه

مثل السبي عليه السلام : يا رسول الله ! أى الناس أحب إليك ؟

قال : عائشة .

قالوا : إنما نعنى من الرجال ..

قال : أبوها .

وكان عليه السلام يقول : ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافىء بها ما خلا أبا بكر ، فإن له يدًا يكافيه الله بها يوم القيامة .

ويفسر ذلك قوله عليه السلام : ما أحد أعظم عدى يدًا من أبى بكر . وامسأنى بنفسه وماله ، وأنكحنى ابنته .

وكان عمر بن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا وحيرنا وأحبنا إلى رسول الله

ﷺ .

وهذه حقيقة لو لم يؤيدها لسان انقال لا يدها ما يسمونه بلسان الحال . فإن أبا بكر كان ألزم الناس للسبي وأعرفهم بسره وجهره وأقربهم إلى نقتة وحسن رأيه ، وكان السبي عليه السلام يسمر عنده فى شئون المسلمين ويركن إلى مشورته فى كثير من الأحيان ، وإذا بلغ من شأن رجل أن يكون أحب الناس إلى السبي عليه السلام فهو أهل لحه وأهل لثقتة لا مرأه ، لأن هذا الحب فى النفوس العظيمة فربس الثقة والتقدير لا يخلو منهما ولا يفصل عنهما - فمن استحق منها الحب الراحح فقد استحق عندها الثقة الراجعة فى أن .

فلم يكن حب السبي أبا بكر حب الرجل يجزى به من يحبه ويخلص له ويوليه الجميل من ذات نفسه وماله ثم لا يريد . ولكنه كان كذلك حب الرجل من يستحق منه الحب لمصيلته وكهايته واقتداره على معونته فيما تجرد له من عمل عظيم لا يصطلع به كل معين .

وحين قدمه للإمامة من بعده لم تكن وسيلته إليها حب الإخلاص والخزاء ، بل كانت وسيلته إليها حب الثقة والروية وحب الدعوة التي تجرد لها وحب المسلمين الذين آمنوا بتلك الدعوة فإن نبياً كمحمد عليه السلام لا يجعل مستقبل ديه مكافأة لصداقة إنسان ، وإنما بكل هذا للمستقبل لمن هو أهل لأمانته وأقدر على صيانته ، وهو من أجل ذلك أهل للحب وأهل للتبقي والادخار .

أما حب أبي بكر محمدًا فهو كما قدمناه حب الإيمان والإعجاب والولاء ، وهو الحب الذي تهون فيه على المرء نفسه وماله وذروه ، ويترعه من مصيه ليستوى على حاصره كله وما هو أعز عليه من الحصر وما فيه ، وهو الأمل فيما يشهد والأمل فيما وراء الغيب ، بل الأمل في حياة من تبعد

فمما لللحظة التي انعقدت فيها الصداقة بينهما رضي الصديق الأمين أن يسحو في سبيل هذه الصداقة بكل ميسر عنده وكل أثر لديه وأنفق ماله وفارق وطنه وأساءه وهاجر من مكة محاطراً بحياته ، فما همُّه وهو محضوف بالخطر في طريقه إلا صاحبه الذي معه يقديه في وسعه من فداء لبسقه نارة ويحلله ناره أخرى ليدرأ عنه الشر من حيثما توقعه واتقاه ، ثم يفيم على هذا العهد ما أقام في ديه ، غير باحل بعير ، ولا يكص عن محذور ولا يادم على مبدول أو موقود .

ومن فضول القول أن يقال إنه أقام على عهده هذا بعد موت النبي ، كما أقام عليه طوال حياته ، فكل حركة تحركها وكل كلمة قالها شهيد بذلك له عبد من ينصف ويعقل ، بل عند من يعقل ولو لم يكن من المنتصفين .

إذ ليس من العقل أن يقدح قاذح في ولاء الصديق لسبب بما حرم فاطمة رضي الله عنها من ميراث أبيها فلئن حرمها لقد حرم عائشة مثلها ، لأن الأنبياء في شريعة محمد لا يورثون ، وما أراد أبو بكر أن يرض بميراث محمد على وارثيه ومنهم بنته وأحب الناس إليه ، ولكنه أراد أن يرض بدينه ويصن بوصاياه ، وهي أولى أن تصان من المال ومن البين ، كذلك لا يقال إنه حرم علياً عليه السلام حقاً في الخلافة ، فما كان في وسعه أن يحرمه شيئاً لو كان عليه السلام قد وصى به شيء ، وما كانت فاطمة بعائبة عن سرير أبيها في مرض موته

فيقال إلههم قد كتموا عن النسي بعض ما قال ، ولا كان على بالذي يعوره  
المنطق لو أنه أراد البرهان من القرآن الكريم أو أراد الحججة من الحديث  
الشريف . ومن أين لأبي بكر تلك القوة التي ينتزع بها الخلافة انتزاعاً من آل  
النسي ومن الأنصار والمهاجرين بغير حجة وبغير برهان ؟ لش استطاع ذلك غير  
محتال ولا معتال ولا سافك دم لكمي بذلك آية له أنه أحق المسلمين بولاية  
أمر الإسلام وأقدرهم عليها . وما استطاعه بعد ذلك من تثبيت الدين وقمع  
الفتنة وافتتاح الدولة لهو الآية بعد الآية والتمكين فوق التمكين .

لقد حدث بعد النسي ما لا بد أن يحدث ، وما ليس بكثير أن يحدث في  
موقف مقتضب لم يُمهّد له بسابق متبوع ولا بقدوة مأمومة ، فتأخر على على  
المبايعة أشهراً وقيل إنه لم يتأخر غير أيام بل ساعات ، فلا هو ولا أبو بكر صنع  
ما يعيب في هذه الفترة طالت أو قصرت ، لأن أبا بكر كان يندب علياً للمهمات  
في حراسة المدينة وعلى كان يلجئ نذبة أبي بكر تلبية الصدق والنجدة ولو  
صح أن أبا بكر أخفى حقاً يشينه إخفاؤه له أقر على له ببيعة ، ولا رضى له ولا  
لم يعلم صحبة ، فكيف لو صح ما تهوؤس به بعض المتهووسين من إحصاء آيات  
من القرآن أو كلمات من الحديث ؟

جهد ما يقال في أحداث تلك الفترة أنها مدعاة أسف لا يؤمى عليه ، لأنها  
أقل ما يؤسف له إلى جانب العبطة التي يعتبط بها من أحاط بالموقف وأحاط  
بدواعي الخطر فيه ودواعي السلامة منه .

أما عهده لعمر من بعده فلا محل هنا للموازنة بين استخلاف عمر  
واستخلاف عبي في تلك الآونة ، ولكننا نقول إن الصديق قد جهد في مسألة  
العهد جهد رأي ، وإنه كان يود أن يكل الأمر إلى المسلمين يخنارون من  
يشاءون ، فجمع إليه نخبة من أهل الرأي وقال لهم فيما قال : « ... قد أطلق  
الله إيمانكم من بيعتي ، وحل عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمرؤا عليكم  
من أحببتكم ، فإن أترمت في حياة منى كان أجدر ألا تحتلفوا بعدى » .

فلم يستقم لهم أمر كما جاء في رواية الحسن البصري ، ورجعوا إليه يقولون : « إن  
الرأي يا خليفة رسول الله رأيك » فاستمهلهم حتى « ينظر الله ولدينه ولعباده »

ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن بن عوف  
وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن الحضير .

وسأل علياً فقال : « عمر عند ظنك به ورأيك فيه ، إن وليته - مع أنه كان  
والياً معك - نحظى برأيه ونأخذ به ، فامض لما تريد ، ودع مضطربة الرجل ،  
فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت ، وإن يكن ما لا تظن سم ترد إلا  
الخير » .

وأملى أبو بكر كتاب العهد على عثمان بن عفان فكتبه وختمه وخرج به  
مختوماً وبأدى في الناس : أتبايعون لن في هذا الكتاب ؟ ... وقيل إن أبا بكر  
أشرف من كؤوته فقال : « يا أيها الناس إني قد عهدت عهداً أفترضونه ؟ فقالوا :  
رضينا يا خليفة رسول الله وقام على فقال : لا نرضى إلا أن يكون عمر » .  
ثم كانت البيعة التي أجمع عليها المسلمون .



فالمسألتان اللتان حسبنا من قبيل اختلاف بين الصديق وعِترَةِ النبي ﷺ  
هما هاتان المسألتان : للميراث والخلافة .

ففي مسألة الميراث ما كان به أن يُرم فيها غير ما أبرم وقد علم أن النبي لا  
يورث كما قال ﷺ ، وكان حكم عائشة في هذا كحكم فاطمة رضي الله  
عنهما ، وقد حضرته الوفاة وهو يوصي عائشة أن تنزل للمسلمين عما وهب لها  
من ماله ، وإبه حلّ لها بالهبة والميراث .

وفي مسألة الخلافة لا محمد المجاملة حيث تكون المجاملة إخلالاً بالذمة التي  
بيته وبين ربه ، وإخلالاً بالوحدة الإسلامية ومصالح المسلمين مجتمعين .

وفيما عدا هاتين المسألتين سم يكن من أبي بكر في حق فاطمة إلا أحسن  
المجاملة والإحمال ، ولم يكن منه تقصير قط في تعهد البيت النبوي بما يصون  
وقاره ، ويحمي حواراه ، بل كان منه في حق أهل البيت كل ما يُرضى ويرى .

وجرى أبو بكر في معاملته لصحابة النبي على طبعه الذي فطر عليه ، وهو الرفق والمروءة والحياء فأحسن صحبتهم وأثبت لهم ما أثبت النبي لهم في حياته ، ولم يكن منه في حقهم ما يشكوه إلا ما شك منه بعضهم حين التسوية بينهم وبين العبيد والنساء في حصة بيت المال ، وذلك رأى له قدما حجتة فيه ، فأقذارهم عند الله يجزيهم عليها الله ، وهذا معاش تحسن به المساواة بين الناس .

وكان أقربهم إليه وأجمعهم لثقتة وحسن طبعه عمر بن الخطاب : عرفه على حقيقته التي جهلها بعض الصحابة ، وعرف ما هي باطن نفسه من رحمة تحفيها خشونة ملمسه وشدة في عمله فلما سأل عنه عبد الرحمن بن عوف أحابه : « إنه أفصل من رأيك فيه . ولكن فيه غلظة » فقال عن خبرة به : « هو كذلك لأنه يرأس رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه » .

وقد أثر أبو بكر أن يبقى عنده نخبة الصحابة في المدينة فلا يقصيههم في الولايات ولا يفرقهم بين الأقطار ، لأنهم أحق الناس أن يستشيرهم ويرجع إليهم ويشركهم معه في رقابة العمال والولاة ، وسئل في أهل بدر لم لا يوليهم عملاً فقال : « أكره أن أؤدسهم بالدنيا ، ولعله يريد بالتدريس تعريضهم لفتنة الدنيا وشهوة الحكم وغواية المال وللتنازع .

ولا بدري على التحقيق أي الصاحير كان صاحب الفكرة الأولى في هذه السياسة التي اتفقا عليها ولم يحرفا عنها قط في عهديهما إلا لصورة بادرة . ونعنى بها سياسة الإقلال من إسداد الأعمال إلى كبار الصحابة

فعمر كان مشتتاً في اتباع هذه السياسة حتى ليخطر على البال أنه هو صاحب الفكرة السابقة فيها ، وكان أبو بكر يحالفها حيناً فيحاول عمر أن يرده إليها . قال : « لما خرج معاذ بن جبل إلى الشام أخلّ خروجه بالمدينة وأهلها في لمقه وما كان يعتيهم به ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبس الحاجة الناس إليه ، فأبى عليّ ، وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أحبس به ، فقلت . والله إن الرجل يبرزق الشهادة وهو على فراشه » .

إلا أن أنا نكر كان يحذر انصلاق بعض الصحابة محادثة الرجل الذي امتلأ  
بغضب رأيه ولم يستمده من مشورة غيره . فلم يسس أن يحذر عمر هذا التحذير  
في وصيته إياه بعد استخلافه حيث قال

« واحذر هؤلاء الثمر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفحت أجوافهم  
وظمحت أنصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه ، وإن منهم لحيرة عدو  
واحد منهم ، فربما أن تكونه ، واعلم أنهم لن يرالوا منك حائقي ما حفت  
الله . . . »

وفى هذا الرأي من لسانه حين أحس من بعض المهاجرين ظمعا في  
الاستخلاف دون عمر بن الخطاب ، فقال لعبد الرحمن بن عوف وقد دخل  
عليه يعوده .

« ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد عني من وجهي ، إني وليت أمركم  
خيركم في نفسي ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دوني ، ورأيت الدنيا قد  
أقبلت ، ولما تهبل ، وهي مميلة حتى تتحدوا ستور الحرير وبضائد الديباج وحتى  
يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأدري (١) كما يألم أحدكم إذا نام على  
حسك السعدان . والدي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير  
حد خير له من أن يحوض غمرات الدنيا ثم أنتم غدا أول صال بالباس يمينا  
وشمالا ، لا تضيعوهم عن الطريق . يا هادي الطريق جرت ! »

فهذا كلام رجل يملأ النفس باليقين بما يقول ، وليس هو برأى ينتقل إليه من  
غيره استحسنه وارتضاه ، ولكنه - فيما نرجح - رأى اتفاقا عليه وقلبا بينهم  
مازاد كل منهما يقينا به فوق يقين



على أن هذه النصائح القوية بين يدي الموت تكشف من حياة أبي بكر ما  
لست تكشفه الأحبار المطولة والأقوال المستفيضة ، فهي تشهد له أنه قد سار

(١) مسروق إلى أدريجان .



في حياته تلك السيرة التي يريدنا من الصحابة ويحث عليها أناسًا في مرلة  
عبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب ، وأن تلك السيرة كدت من البدانة  
المعروفة التي يصدر عن صاحبها الصبح فيسمعه أمثال هذين الصحابين  
الكبيرين . وقد كانت هذه هي الواقع منلة أبي بكر بن الصحابة عامة  
وخاصة : استحقها بينهم بسابق إسلامه وقديم صحبته للسى صلوات الله  
عليه ، واستحقها برياضة نفسه على الكرامة والوقار حتى امتلأت القوس  
حوله بكرامته ووقاره ، ولم يكن أحد غير أبي بكر يسكت عمر بن الخطاب  
وقد ثار ثورته بعد موت السى ، أو يسكته وقد بهض للكلام أول مرة في  
سقيفة بني ساعدة ، وما أسكته يومئذ لأنه حذيفة فما كان يومئذ بالخليفة ولا  
كان عمر بالذى تسكته هيبة منصوب أو سطوة سلطان ، ولكنه رجل وقور  
يسمع له رجل حق . وبما هيئ بين يهانه عمر بن الخطاب أنه لأحق امرئ  
بين الصحابة أن يهاب .



## ثقافته

تُعرف ثقافة الرجل المثقف بعلامات كثيرة ، ولولم تكن لها بالفكرة والاطلاع صلة طاهرة .

وندّر أن يظهر من الإنسان أثر محسوس إلا كان فيه علامة من العلامات على نصيبه من ثقافة زمانه .

على أن هذه العلامات تتفاوت في الدلالة كما تتفاوت في القيمة ، وأدائها وأقومها . فيما يرى - كلام الإنسان ورايه في كلام غيره . لأن الكلام صورة نفسية وقدرة عقلية في وقت واحد . فهو يكشف عن نفس قائله كما يكشف عن قدرة عقله ومبلغ عرفانه بتصوير خلدات قلبه وحطرت دهنه ، فتقديره لكلامه وكلام الناس ميران صادق لتقدير الرجل في جملة أحواله وأفعاله ، وعلامة على الثقافة الروحية والفكرية قلما تضارعها علامة أخرى .

وتقدير الكلام من أصدق العلامات على ثقافة الصديق ، سواء نظرنا من ورثه لكلامه أو في وزنه لكلام غيره ، أو في وزنه للكلام عامة من حيث هو جزء من « الشخصية الإنسانية » يحرص عليه المرء كما يحرص على مقومات نفسه .

والصديق كان أحرص الناس على كلام يسدر من لسانه ، وكان أعلم الناس بموضع كلام الرّاح من مروءته وشره ، فكان قوله برزاً ، ووصيته بالإقلال من المقال أسبق وصاياهم إلى ولاته وعماله .

قال لخلد بن الوليد :

« أقل من الكلام فيما لك ما وعى عنك » .

وقال ليزيد بن أبي سفيان :

« إذا وعظتهم فأوحز ، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً »

وكان يقول « إن البلاء موكل بالمنطق » ويجتنب التريد في المقال كما  
يجتنب التعرض للسلا .

كان أقرب الصحابة إلى النبي ﷺ وألزمهم له في نهارة وليله ، ولكنه على  
هذه الملامة لم يرو من الأحاديث السوية إلا بيها ومائة وأربعين حديثاً لم يتجاوز  
ما أثبتته البخاري ومسلم نحو سبعها .

وقيل في تعليل ذلك إنه ﷺ مات قبل تدوين الأحاديث .

وهو تعليل يُرد عليه أن كثيراً من مسعوا الأحاديث النبوية ماتوا كذلك قبل  
الاشتغال بتدوينها ، وإما هي فلة كلامه فيما يرى أفلت ما سمع الناس عنه  
فحرروه ونقلوه .

ذلك وزنه للكلام عامة من حيث هو منكة بنفسه وخزء من الشخصية الإنسانية

أما كلامه هو فمن أرحح ما قيل في موارد الكلام ، سواء في ذلك موارد  
السلاغة أو موارد الخلق والحكمة ، وله من جوامع الكلم أمثلة بادره تدل الوحدة  
مها على منكة صاحبها فيعنى العليل منها عن الكثير كما تعنى السسلة الوحدة  
عن الحرين الخافل ، حين تكون المسألة مسألة الدلالة على المست والسات .

وحسبك أن تعلم معدد القول من نفسه وفكره حين تسمع كلمة كقوله :  
« احرص على الموت توهب لك الحياة » .

أو قوله « أصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الحياة » ،

أو قوله « خير الخصلتين أبعصهما إليك » ،

أو قوله « الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله » ،

أو قوله « إذا ماتك خير فأدركه وإن أدركك فاسقه » ،

أو قوله « لا تتحرن عن المشير حبرك فتؤتى من قبل نفسك » ،

أو قوله : « ليست مع العزاء معصية » .

فهى وما أثر عنه من أمثالها كلمات تتسم بالقصد والسداد ، كما تتسم  
بالبلاغة وحسن التعبير ، وتنبئ عن المعدن الذى نجت منه فتعفى عن علامات  
التثقيف التى يستكثر منها المستكثرون ، لأن هذا الفهم لأصيل هو اللسان  
المقصود من التثقيف

وكانت له يمين لباقة فى الخطاب إلى حاسب هذه البلاغة فى الكلام ، وهذا  
لجد فى وزن المقال .

عزى عمر فى طفل احتسبه فقال له .

« عوصك الله منه ما عوضه منك ،

وسأل رجلاً يحمل ثوباً :

أتبيع هذا الثوب ؟

فأجابه : لا . . . عافاك الله !

فان : هلا قلت لا وعافاك الله !

وهذا تمام البصر بالكلام ، قصد فى العبارة ، ووزن للكلام ، ودور فى  
الخطاب ، ولا تتعرف النفس المشقة إلى الناس نأية هى أقرب من هذه الآية  
وأحق منها بالتصديق .

ومن السهل على من يملك هذا السان فى كلامه أن يتتبع شواهد البيان فى  
كلام الآخرين .

ولعل الصديق قد ملئ هذا البيان لأنه طبع عليه وطبع على حبه وتتبعه فى  
كلام البعد من الخطباء والشعراء .

فكان يروى الشعر ويحفظ الأمثال ويراجع البهى <sup>الطينة</sup> فى الأبيات التى  
يبدل مواضع كلماتها ليخرجها عن وزنها ، ومنه - لا ريب - قست السيدة

عائشة ذلك القس من ماثورات الشعر والخطب - فيما كانت تتمثله وترويه ،  
واليه ترجع السليقة التي ظهرت في دريته وسهم ولداه عبد الله وعبد الرحمن  
وكانا ينظمان الأبيات بعد الأبيات .

وهو نفسه لم ينظم الشعر فيما أجمع عليه الثقات ، ولكنه - وإن لم ينظم  
قريب السليقة عن قالوه ولو بالتدوق والحفظ والرواية .

ولهذه الثقافة مراجعها التي ترجع إليها أفصل ثقافات زمانه هي الجزيرة  
العربية

طبع سليم وملاحظة صادقة وخبرة بالدينا من طريق المعاملة والسياحة ،  
واصغاء إلى الحسن من القول ، والوثيق من الأخبار ، وعلم بالأسباب والتواريخ  
مشهور بين المشهورين من أربابه ، واستيعب للقرآن كله ولمفقه الدين كله ،  
ودراية بما استوعب من معانيه عن فهم وعن سماع عن نزل عليه القرآن الكريم  
صلوات الله عليه .

قرأ يوماً :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَصْرُكُمْ مَنْ صَلَ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴾

فقال :

إن الناس يصنعون هذه الآية في غير موضعها ، ألا وأنى سمعت رسول الله  
ﷺ يقول :

« إن القوم إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، والنكر فلم يغيروه ، عمهم  
الله بعقابه » .

وسأل أصحابه يوماً :

ما تقولون في هاتين الآيتين .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

و ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ...﴾ ؟

قالوا : لم يلبسوا إيمانهم بظلم الخطيئة .

فقال : لقد حملتموها على غير الحمل . استقاموا هم يلبسوا إيمانهم بشرك  
وإن فقه القرآن لينبوع يستمد منه الصديق في سلامة طبعه وصفاء دمه  
مدداً يرجع بأعداد .

ثقافته في زمانه هي ثقافة الفقيه الأديب المؤرخ بما اصطالحوا عليه من معنى  
التاريخ في ذلك الزمان .

ولا يتشابه معنى التاريخ عندهم ومعنى التاريخ عدنا كما توسع فيه اليوم ،  
ولكن السبب الذي يعلمه الصديق كان هو السبب المحيط بالحماد والمثالب في  
القضايا العربية كافة ، وهو أنفع ما في علم التاريخ حين يراد بعلمه الطموح إلى  
مرلة الحمد والسمعة الرفيعة والنسرة عن معارص أقدام وقالة السوء ، وكذلك  
كان علم الصديق بأنساب العرب أجمعين ..

لما خرج النبي ﷺ ليُعرض نفسه على القبائل في أول الدعوة الإسلامية  
كان معه أبو بكر وعلي بن أبي طالب أمبق الناس إلى الإسلام .

قال عليّ رضي الله عنه

« فررنا إلى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر فسلم ، وكان مقبلاً  
في كل حير ، وكان رجلاً نسيبه فقال ممن العموم ، قلوا : من ربيعة ، قال : وأي  
ربيعة أنتم ؟ أمن هاماتها أو من لهازمها ؟

قالوا : من هاماتها العظمى .

قال : وأي هاماتها العظمى أنتم ؟

قالوا : من دُهل الأكبر .

قال فمكم عوف بن مُحَلَم الذي يقل فيه لا حرّ بوادي عوف ؟

قالوا : لا .

قال . فمنكم المرء الذي يملك العمامة الفريدة ؟

قالوا : لا .

قال . فمنكم بسطام بن قيس أبو القرى ومتهى الأحياء ؟

قالوا : لا .

قال : فمنكم جساس بن مرة حامى الذمير ومانع الحار ؟

قالوا : لا .

قال . فمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسلب أنفسها .

قالوا : لا .

قال : فمنكم أصحاب الملوك من كندة ؟

قالوا : لا .

قال . فمنكم أصحاب الملوك من لخم ؟

قالوا : لا .

قال أبو بكر :

« فليستم ذهلاً الأكبر . إنما أنتم ذهل الأصغر »

وكان هذا علمه بأنساب كل قبيلة ومحمد السابقين منها ومثاليهم ولا سيما قريش ومن حوورها ولهذا كانوا يقولون كلما سمعوا أبياتاً من الشعراء المسمين يردون بها الهجاء على المشركين

هذا تلخيص ابن أبي قحافة وما عده . لأنه كان في هذه العنبر بين قريش عامة بغير نظير

وبحق لا نستطرداداً من كل رجل تيسرت له هذه المراجع أن يطلع من الثقافة مبلغ أبي بكر الذي تدل عليه أقواله وأعماله وحلائقه وسجاياه ولكننا إذا علمنا أن تلك مراجعه وأن ذلك مبلغه فقد علمنا شيئاً آخر يقصده وتتحراه . وهو أنه رجل خلق من معدن العظمة والامتياز ، ولم يخلق رجلاً كسائر الرجال .



## الصدِّيق في بيته

من السهل بعد مراجعة يسيرة لحياة الصديق في حملتها أن نعلم أنه « رجل بيت » أو « رجل أسرة » وأن أواصره البيتية لا تستند إلى الشعور بالواجب وحده ، ولكنها تستند مع الشعور بالواجب إلى الشعور بمعبطة القرابة ومودة لرحم وعممة ، لألفة والمصاحبة ، فلم يكن ولداً باراً لأن البر بالآباء واجب وكفى ، ولا أباً رحيماً لأن الرحمة بالآباء عريضة وكفى ، ولا زوجاً وحيماً لأن الوفاء للأهل واجب وكفى ، ولكنه كان كذلك كما كان في جميع أواصره وعلاقاته .

رجلاً يشعر بالمعبطة في جوار أساء حسه ، ويأس لصحبة في حو الشعراء والأصدقاء ، ويتجلى فيه خلق الإنسان « الاجتماعي بطبعه » على أحسنه وأوفاه .

عُرف بره بأبويه في جاهلية ، فلما أسلم وصاحب النبي ﷺ جمع بين بر الفطرة والحنان وبر الواجب والفريضة ، وأطمأن إلى هذا البر كما يطمئن صاحب الخير الذي لا حراء عليه أن يصبح وله من الخطوة الإلهية أجمل جراء وعرف عطفه على أسائه طوائ حياته ، فما داخلته في عطفه عليهم قسوة أو شدة إلا أن يكون ذلك بدافع من العقيدة أو رادع من التأديب

قال له بعض أبائه - وقد كان يقاتل مع المشركين

إنسى كنت أراك فأتحاماك

فقال له : لكنني لو رأيتك لما تحاميتك

وكان بين عائشة والنبي كلام . فسألها .

من ترصين أن يكون بيبي وبينك ؟ أترصين بأبي عبيدة بن الجراح ؟ قالت :

لا . ذلك رجل هين يُنْ بقصى لك . قال أترصين بأبيك ؟

قالت : نعم

ولما جاء أبو بكر قال رسول الله : « اقصصى ! »

فقالت : بل اقصص أنت .

فأخذ رسول الله في إعادة ما جرى بينهما من كلام ، وسرت من عائشة كلمة لا تعنيها فقالت . اقصد ، أى التزم القصد ولا ترد في الرواية ، فرفع أبو بكر يده فلطمها وانتهره معضباً نقول يا بنت أم رومان : اقصد ! من يقصد إذا لم يقصد رسول الله ! وحعل الدم يسيل من أنفها ورسول الله يحجز بينهما ويقول لصديقه : يا لم برد هذا حتى انصرف برضى رسول الله . فقال لها ما معناه رأيت كيف أبعدك الله منه ! أو قال مثل هذه المناسبة : « رأيت كيف أبعدتك من الرجل ! » .

ففى هذه وأمثاله يشتد أبو بكر على بنيه وهى شدة قد تقرن بالرحمة ولا تحجبها إلا إلى حين

وكان لصدق شعوره بالأبوة يحس ما يحتاج إليه الوليد فى نشأة الطفولة ويزوده بتلك الحاجة ولو أعصب الأباء وهم عنده أصدق الأصدقاء .

فلما أخذ عمر بن الخطاب انه عاصباً من أمه المطلقة تحاصباً إليه فقصى بالوليد لأمه وقال لعمر :

« ربحها وشمها ولطفها خير له منك » فكان غاية الرحمة وعناية العدل فى أن ، وإن رحلاً يعدل حين يهتم بالجور عمر لهو من العدل بمكان لا يُسامى .

وكادت الصداقة عنده أن تكون أحوة أو بؤة فكان يتحدث عن عمر يوماً فردا هو يقول كأنما يتحدث إلى نفسه .

« والله إن عمر لأحب الناس إلى ... »

ثم حشى أن يكون فى قوله ما يمس الصديق الذى فطر عليه فسأل من معه وفيهم عائشة .

كيف قلت ؟ فأعادت له عائشة ما جرى به لسانه ، فاستدرك قائلاً : اللهم  
أعز والولد للوط ، أى ألصق بالقلب وأدنى .

\*\*\*

وقد بنى أبو بكر بزوجتين فى الجاهلية وزوجتين فى الإسلام ، منهن أم رومان  
وهى أم ولديه عبد الرحمن وعائشة رضى الله عنهما ، ومنهن حبيبة بنت  
خارجة التى مات عنها وهى حامل ، فولدت بعد موته أم كلثوم

ومن أولاده غير عبد الرحمن وعائشة : عبد الله الذى كان يأتيه بأخبار  
قرش حين هاجر مع النبى إلى المدينة وقد حرج بالطائف ومات بجرحه بعد  
انتفاضه . وكانت فيه شجاعة وأدب ورقة ، وله شعر حسن يروى بعضه فى  
زوجته المطلقة عائكة بنت ريد وقصته معها من أدل أخبار هذه الأسرة على  
شعور أبى بكر بالأبوة والزوجية والواجب فى وقت واحد ، وأن معالية بين  
الرحمة والواجب فى نفسه كانت معالية سجال .

وقد كانت عائكة من أشهر نساء عصرها بالجمال والعقل والمطبة ، ومن بها  
عبد الله وشغل بها عن مصالحه وشتوته ، فصيح له أبوه بطلاقها فطلقها ، وما  
زال حتى يدم وألح به الندم على فراقها ، وقال من شعره فيها .

أعانتك ، لا أنساك ما در شارق	وما لاح نجم فى السماء معلق
أعانتك ، فلبى كل يوم وليلة	لديك بما تخفى النفوس معلق
لها خلق جزل ورأى ومنصب	وحلق سوى فى الحياء مصدق
ولم أر مثلى طلق اليوم مثلها	ولا مثلها فى غير شىء تطلق

برحمته أبوه وأمره بمراجعتها . فراجعها فكان أبو بكر فى هذا نموذجاً  
مقابلاً لنموذج عمر فى هذه الناحية من الخلاق والوشائج القلبية ، كما  
كان نموذجاً مقابلاً له فى خلائل شتى ووشائج أخرى . إذ كان عمر ينهى  
على ولده أنه عجز عن طلاق امرأته ، وبعد ذلك من مأخذه حين رشحه  
بعضهم للحلافة بعده

ولم يكن لزوجات أبي بكر ما يشتكيه منه غير الإقلال من النفقة والمصداق في المعيشة ، ففي اليوم الذي اجتمعت فيه نساء النبي ﷺ يطالبنه بالمزيد من النفقة كانت بنت خازجة زوجة أبي بكر تطالبه هذه المطالبة ، فيغضب منها ، ويلوى عنقه ، ويذهب إلى النبي فيحدثه بحدثها ليسري عنه وقد رآه بين أمهات المسلمين على مثل تلك الحالة فكأنما كن جميعاً على ميعاد

ولم يكن أبو بكر مقلداً من المال ، ولا عاجزاً عن كسبه قبل الخلافة ولا بعده ، فقد أنفق في سبل الإسلام أربعين ألف درهم ، وما زال ينفق من ماله في شراء الأكسية والأطعمة وتوزيعها على الفقراء ولا سيما في الشتاء ، ولكنه أثر متاع روحه على متاع حسده وكره أن يعيش في بيته حزيناً من نبيه وصديقه ، وكان يعص السرف فيقول :

« إني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في يوم »

فلو بقي له من المال ما يحاوز به حظه من النفقة لما جاوزه وهو يرى أمامه مثل النبي ويجب أن يكون مثلاً لمن معه ومن بعده من حلفاء الإسلام وعمامة أتباعه .

وقد تعددت الروايات عما قسم له من الرزق بعد الخلافة وكيف قسم عشرة من حضر من جنة الصحابة ومهم عمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة ، ولكن الروايات متفقة على قصده في بيته واجتنابه للسرف في معيشته ، وأنه كما قال « لم يعد سد الجوعة وورى العورة وقرنة القوام » .

ومات وليس عنده مدخر يذكر فقال عمر

« رحمه الله لقد أعب من بعده » . يريد أنه ألزمهم قدوه تتعب ولا تريح

\*\*\*

وحسب أن الشاة في حياة أبي بكر البيتية لا تتمثل في شيء كما تتمثل في شاة ستيه عائشة وأسماء رضى الله عنهما ، فأما عائشة فقد هارقت بيت أبيها وهي في نحو العاشرة أو أكثر من ذلك بقليل كما استحلص بعض المؤرخين من مراجعة التواريخ الكثيرة ، فإذا هي في تلك السن قد وعت ما وعته

من الشعر البليغ والأمثال السائرة والأحبار المادرة ، وقد بصجت لمصاحبة السبي  
والوعى عنه والدرية بالمأثور من كلامه ، وكانت بعد ذلك مرجعاً من مراجع  
الفقه والسنة خليقاً باعتماد الثقات الأجلاء .

ومن الناس من تعود أن يتحيل عائشة رضى الله عنها جارية صغيرة حظيت  
عند زوجها الصحاح لجمالها وصبرها وصداقة أبيها ، ولكنها - ولا ريب - لم تلع  
هذه الحظوة عنده صلوات الله عليه إلا لأنها الروحة الكفء لسلوعها وإحاطة  
عليها ، وكانت تعرف من أدب الزواح ما يجعل مكانها ، وتعرف من ملاطفة  
الزوج مداحل قلبه ومواطىء رصده ، وربما دلت روحها ولم تترك له وحده مسرة  
تدليلها . فمن ذلك فى روايات تختلف فى النقل وتتفق فى هذا المعنى أنه كان  
الصحاح يصلح نعله فى يوم قائط فتندى جبينه وتحد العرق على خده ، وهى  
تلحظه من قريب وكأن بها وجداً عليه . فسألها :

ما لك بُهت ؟

فكانت : لو رآك أبو كبير الهدلى لعلم أنك أحق بقوله

فعاد يسألها : أى قوله ؟

فأجابته : حين يقول :

وميراً من كل غبّر حبصة      وفساد مرصعة وداء مغيل  
إذا نظرت إلى أسرة وجهه      برقت بروق العارض المتهلل

فقدم السى إليها يقبل ما بين عيبيها ، ويقول لها : سررسى يا عدنشة  
سرك الله .

وهى أبعد شىء عما يتصوره القناد لأوربيون حين يصورونها لقرائهم لعة  
صغيرة بين يدي رجل كبير يدلها ولا تفاهم بينه وبينها ، ولكنها الروحة التى  
تكافى الزوج فى حياته المنزلية ، والمرأة التى تبادل الرجل ما عنده من شعور ،  
والتلميذة التى تتلقى عن أستاذ عظيم فتحسن التلقى عنه ، وهى من جميع  
هذه الأجواب مثل صالح للشاة الميتة فى أسرة الصديق

\*\*\*

أما أسماء - ذات النطاقين - فما حمد الناس فضيلة للمرأة ستاً وزوجاً ووالدة  
إلا كانت فيها على أجملها وأسمأها وأحفظها بالتمجيد والإكبار .

أسلمت مع أبيها ، وكانت تخاطر بنفسها لإخفاء هجرته مع رسول الله  
وتزويدهما بالطعام والميرة في تلك الهجرة ، ولم تجد ما تشد به طعامهما عشقت  
بطاقتها وشدة به ، فسميت لذلك ذات النطاقين

وتزوجت الزبير بن العوام وليس له مال ولا مورد ، فكانت تلعب فرسه وتدق  
البوى لناصحه<sup>(١)</sup> وتستقي له الماء وتخز<sup>(٢)</sup> له غربه<sup>(٣)</sup> وتنقل البوى على رأسها من  
الأرض التي أقطعها إياها رسول الله على مسيرة ميلين وما رالت كذلك حتى علم  
أبوها بمشقتها في خدمة زوجها اتفاقاً فأعابها بخادمة ، بعد أن قضت زمناً تخدم  
بيتها وهي بنت أبي بكر وزوج الزبير وأم عبد الله من أعظم أبطال الإسلام .

وحاصر بنتها عبد الله في مكة فحذله الناس حتى أهله وولده ، وعرض عليه  
بنو أمية الأمان والولاية والمال فذهب إليها يعرض عليها أمره ، وهو يقول  
« لم يبق معي إلا اليسير ومن لا دفع عبده أكثر من صبر ساعة من النهار ،  
وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ »

فما صعبت من الهول صعب النساء ، ولا صعب الأمهات ، وإن الأبطال  
الصناديد ليضعفون في مكابها ، فلا يعدمون المعدة الماهضة والشفاعة المقبولة ،  
بل ملكت جاشها وملكته جاشه وأقلت عليه تقول

« يا ولدي ؛ إن كنت على حق تدعو إليّ فامض عليه ، فقد قتل عليه  
أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك علمان بي أمية فيتلعبوا بك ، وإن قلت إني  
كنت على حق فلما وهن أصحابي صعبت ليتي فليس هذا فعل الأحرار ، ولا  
فعل من فيه خير كم حلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ما يقع به يا ابن  
الزبير والله لصربة بسيف في عز أحب إليّ من حربة بسوط في دل »

والصفت تدعو الله كأنما تناجى نفسها :

(٢) البوى س ١ جلد

(٣) تخز تنقب

(١) البوى الذي يستقى عليه الماء

« اللهم ارحم طول ذاك السعيب والظلم في هواجر المدينة ومكة ، وبره بآمه !  
اللهم إني سلمت فيه لأمرك ، ورصيت فيه بقصائلك ، فأثبي في عبد الله ثواب  
الشاكرين . »

مقالة أم جاورت امانه واصطلحت عليها الملهمات وكف بصرها من الحزن وبشت  
من نصرة انها ومن حياته في جهاده ، فاهضت من السن والمرض والخوف والشكل  
في أخرج الساعات ما تنوء به عرائم الأقيال وتهدله أركان الجبال

ثم غلب القوم ابتها المقدام فصلوه ورفعو جيشه للتمشيش والتشهير ، فألمها أن  
يصاب في كرامة موته كما ألمها من قبل أن يصاب في كرامة حياته

ودهبت إلى الحجاج تسأله في ذلك سؤال الأعراء ، فقددها الدليل إليه حتى  
وقفت على مقربة منه تقول :

أما أن لهذا الراكب أن ينزل ؟

قال في غير رفق ولا حياء : المداق ؟

وما همها وهو صاحب طلبتها أن يحيبها أو لا يحيبها ، وإنما همها أن تدفع  
عن ولدها وأن تجري الشاتم بشتمه ، وقالت معصية :

والله ما كان منافقاً ، والله ما كان منافقاً ، وقد كان صواماً قواماً . . . » .

فماجلها مغيطاً من ردها عليه .

ادهى فإذك عجوز قد خرفت . .

قالت :

لا والله ! ما خرفت ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« يحرج من ثقيف كذاب ومير<sup>(١)</sup> فأما الكذاب فرأباه ، وأما المير فأنت هو »

وهذه هي الأم التي يشرف بها الأبناء والآباء ، وتشرف به سلاله آدم  
وحواء . .

(١) مير مهت

هذه أسماء بنت أبي بكر

وتلك عائشة بنت أبي بكر .

فما عسى أن يقول القائل وأن يشي المثنى على بيت ينجب هاتين العقيلتين  
الكريمتين ؟

لقد كان لأبي بكر أبناء من خيرة الرجال .

ولكن البيت تدل عليه سائته قبل أن يدل عليه أبناؤه لأن الفضل في  
شأتهن كلها للبيت ، من حيث يحسب لعير البيت الفضل في شأته الأسماء .

وذلك هو بيت الصديق ، أكرم به من بيت بين ما حمت الأرض كلها من  
بيوت .



## صورة مُجَمَّلة

قالت السيدة عائشة في وصف أبيها وقد تناوله بعضهم بما أغصنها  
« سبق إد ونيتم سبق الحواد إذا استولى على الأمد ، فتى قريش ناشئاً وكهفها  
كهلاً ، يفك عابيتها ويريش بمنقها ، ويرأب شعبها ويلم شعنها ، حتى حلتها قلوبها ، ثم  
استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل . »  
وكان نفر من المهاجرين والأنصار يتذكرون مصائل أهل الفضل عند باب  
النبي ﷺ ، فخرج عليهم النبي فسألهم .  
فيم أنتم ؟

قالوا : نتذكر الفصائل

فقال . « لا تقدموا على أبي بكر أحداً فإنه أفصلكم في الدنيا والآخرة »  
ومن قوله فيه ﷺ « أبو بكر حير الناس إلا أن يكون نبي » .  
وقال علي عليه السلام في تأييده :

« . . كنت كجبل الذي لا تحركه العواصف ولا تريله القواصف . كنت  
كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً في بدئك قوياً في أمر الله ، متواضعاً في نفسك  
عظيماً عند الله ، جليلاً في الأرض كبيراً عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك  
مطعم ، ولا لأحد عندك هوادة ، والقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ،  
والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له ، فلا حرماً الله أجرك ، ولا أصلاً  
بعذك . . . »

وهي هذا التثناء كناية إذا عمداً إلى الثناء الذي قاله فيه عارفوه

ولكنها في أمر أبي بكر وأمثاله نستطيع أن نتجاوز النشأ إلى مقالة الأعداء  
الألداء ، ونحن آمنون أن نسمع فيه ما يغض من فصله ويتقص شيئاً من حقه .  
إد ليس على عظيم من العظماء غصاصة أن يختلف فيه محتلفون ، وأن يتأور  
أعماله متأولون ، فكل عظيم من عظماء الدنيا قيل له وقيل عليه ، وحسب  
نيات قوم نحوه وساءت نيات آخرين ، فليس هذا بصائره ، وليس هذا بعجيب ،  
وإنما الميراث العادل في الحكم له أو عليه دليل القائل وليس مقال القائل فمن  
شاء أن يزعم ما يشاء فيمن يشاء ، ولكنه لا يوضع في الميراث إلا ببليل تؤيده  
الوقائع والأعمال . فهذا الذي يحسب من مقال القائلين ومن خلاف المختلفين  
فليست نصيلة أبي بكر أنه ظفر من الناس جميعاً بالثناء الذي لا معقب  
عليه ، إد ليس هذا بممكن وليس هذا بمعقول ولا بمطوب .

وإنما نصيلته أنه ظفر بالثناء من في ثنائه صدق وثنائه فيمة وأن خلاف  
المخالفين لم يقم قط على دليل ولم يأت قط من أناس يحسنون ما يقولون

وكل حكم على أبي بكر مؤيد بدليل معتمد على واقع ، فهو مصور له في  
صورة عامة واحدة لا شك فيها ، وهي صورة أمين ، وأكثر من أمين ، لأنه لم  
يتهم قط بخيانة في الجاهلية أو في الإسلام .

وأكثر من الأمين ، لأن الأمين هو الذي يعطى حق غيره ، فأما الذي يعطى  
الأمانة ويزيد عليها ، أو يعطى حق غيره ويعطى من حقه الذي لا يطلب منه ،  
فذلك هو المفضل الذي حاز قدر الأمانة ، فهو أكثر من أمين

وكان أبو بكر يؤدي الأمانات في الجاهلية ويزيد عليها من عند فضل الفصل  
وأحسن أحسن وإغاثة المغيث .

ثم تسلم لأمانة الكبرى بعد الخلافة فترك الدنيا وقد أداها كما هي وزاد عليها  
ولسا غالين في الخمار حين نقول إنه صنع مثل ذلك في أمانة الخلق أو أمانة  
الحياة ، فمات حياً ما ولد ، شأ صغيراً في بدنه كما قال رسول الله ، فإذا هو

يستمد من قوة باطنه لقوة ظاهره ، ويلقى من مروءته على مرآه ، حتى أنشأ من نفسه ما لم ينشأ من بدنه ، وبلغ من المهابة بالقوة التي زادها على تكوينه الظاهر فوق ما يؤتاه أمثاله في أمثال هذا التكوين .

للناس أن يعطوه وهم على ثقة إن يستردوا ما أعطوه وزيادة ، وللحياة أن تعطيه وهي على ثقة ألا ينقص عطاؤها وألا يزال معه في ازدياد ، وعلى كل أمانة عنده كائناً ما كان معطيها حق مصون ، ومزيد مضمون .

صورته الجملة أنه الأمين وأكثر من الأمين . .

الأمين في الصداقة ، والأمين في الحكومة ، والأمين في السيرة ، والأمين في المال ، والأمين في الإيمان ، ثم هو في كل أولئك أكثر من الأمين .

عصمته العواصم من فتنة الغواية فولد كريماً تعنيه العزة بين الأقوياء ، ولا يعنيه الطغيان على الضعفاء .

وكبير وليس له مارب في سياحة باغية ، ولا في حيلة دائمة على من لا يريد لها ولا يطمئن إليها .

وكبير في تكوينه حدة الشعور وحماسة اليقين ، وسليقة الإعجاب ، وعصمة المروءة والوقار .

وكبير وكل فضيلة فيه تكبر إلى أمادها ، فلما مات كان أكبر ما كان ، وأكبر ما يتأتى أن يكون . .

مات وهو صاحب الدعوة الثانية في الإسلام ، فكان الثاني حقاً بعد النبي ﷺ في كل شيء ، من قبول الإسلام إلى ولاية أمر الإسلام إلى تجديد دعوة الإسلام ، بعد أن نقضت الردة دعوته الأولى وأوشكت أن ترجع بها إلى الجاهلية الجاهلاء .

ثاني اثنين ، وأول مقتد وأول مجيب . .

ذلك موضعه في تلك الدعوة الإنسانية التي نشأت في أمة واحدة ثم غيرت

ما بعدها في جميع الأمم ، سواء منها من علم ومن لم يعلم ، وهي دعوة صديقه  
وصفيته ونبيه محمد صلوات الله عليه .

\*\*\*

قبل إنه مات بالسم في أكلة أكلها قبل عام من وفاته ، وليس لهذا القول  
مرجع يميل الباحث إلى تصديقه .

وقيل إنه مات بالحمى لأنه استحم في يوم بارد ، وقد مات في شهر فائظ<sup>(١)</sup> كما  
يظهر من مضاهلة الشهور العربية على الشهور الشمسية ، فليس لهذا القول سند صحيح .  
وأغلب الظن أنها حمى المستنقعات « الملاريا » التي أصيب بها بعد الهجرة  
إلى المدينة ، ثم عاودته في أوانها مرة أخرى وهو شيخ ضعيف ، فجددت  
الإصابة الثانية عقابيل الإصابة الأولى ، وانتهت حياة بلغت نهايتها في حيز  
الجسد ، وفي حيز المجد ، وفي حيز التاريخ .

---

(١) أغسطس .

## فهرست

تقديم	٣
اسم وصفه	٩
الصديق الأول والخليفة الأول	١٣
صفاته	٣١
مفتاح شخصيته	٤٥
غودجان	٦١
إسلامه	٧٣
الصديق والدولة الإسلامية	٩٥
الصديق والحكومة العصرية	١٢٥
الصديق والنبى وصحبه	١٣١
ثقافته	١٣٩
الصديق فى بيته	١٤٥
صورة مجملة	١٥٣

